



إبراهيم عبد القادر المازني

صندوق الدنيا

صندوق الدنيا

صندوق الدنيا

تأليف

إبراهيم عبد القادر المازنى



رقم إيداع ١٥٣٠٦/٢٠١٢

تدمك: ٨ ٢٠ ١٦ ٦٤ ٩٧٧ ٩٧٨

كلمات عربية للترجمة والنشر

جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات عربية للترجمة والنشر
(شركة ذات مسئولية محدودة)

إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه
ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة
جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٢٧٤٣١ + فاكس: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥١ +

البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org

الموقع الإلكتروني: <http://www.kalimat.org>

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لشركة كلمات عربية
للترجمة والنشر. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية
العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Kalimat Arabia.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧	مقدمة
١٣	١- شذوذ الأدباء
١٧	٢- الصغار والكبار
٢٣	٣- الحقائق البارزة في حياتي
٣١	٤- اللغة العربية بلا معلم
٣٥	٥- أشق المحادثات
٣٩	٦- من ذكريات الصبا: بين رجال الليل
٤٧	٧- أبو الهول وتمثال مختار
٥٥	٨- الحب الأول
٦٣	٩- حلاق القرية
٦٧	١٠- سحر مجرب
٧٥	١١- الفروسية
٧٩	١٢- الطفولة الغريبة
٨٥	١٣- مقتطفات من مذكرات حواء
٩٧	١٤- عاطفة الابوة
١٠٧	١٥- كيف كنت عفريتاً من الجن
١١١	١٦- رجل سانج
١١٥	١٧- ابن البلد
١٢١	١٨- صورة وصفية لصحفي
١٢٧	١٩- حلم بالآخرة

مقدمة

بقلم إبراهيم عبد القادر المازنى

كنا نفرح «بصندوق الدنيا» ونحن أطفال.. نكون فى لعبنا وصخبنا فيلمح أحدنا «الصندوق» مقبلاً من بعيد فيلقى ما بيده من «كرة» أو نحوها ويطلقها صيحة مجلة ويذهب يعدو متوثباً ونحن فى أثره، ونتعلق بثياب الرجل أو مرقعته على الأصح، فما هى بثياب إلا على المجاز، فهذا ممسك بكمه، وذاك بحزامه وآخر يده على الصندوق، وهو سائر وظهره منحن تحت حمله، ولحيته الكتّة الغبراء مثنية على صدره، ونحن نتلاغط حوله وتتوثب، حتى يصير بنا إلى الظل، فيضع «الدكة» الخشبية على الأرض فنكون فوقها نتزاحم ونتدافع ونتصايح ونتشائم قبل أن تستقر على أرجلها، والرجل ساكن الطائر لا يعبأ بنا ولا يولينا نظرة ولا يحفل من بقى منا على «دكته» ومن زحزح عنها فوقع على الأرض فقام يلعن ويسب أو يبكى ويتوجع، أو يمضى إلى الحائط فيلصق به كتفه ويعمل يده فى عينه.

ويخلع الرجل الحوامل عن كتفه وقيمها أمامه ويرفع «الصندوق» ويحطه عليها، فنزحف نحن «بالدكة» إليه وندنى وجوهنا من العيون الزجاجية الكبيرة، وننظر وننتظر. فإن صاحبنا لا يعجل، ويطول بنا النظر إلى لا شيء. والانتظار على غير جدوى، فنرتد برءوسنا عن عيون الصندوق، ونرفع إليه وجوهنا الصغيرة، فيبتسم ويبسط كفاً كالرغيف ويقول «هاتوا أولاً» فتندفع الأيدي إلى الجيوب تبحث عن الملايم وأنصافها فتفوز بها أو تخطئها، فتبيضُ وجوه وتسودُ وجوه وتلمع عيون وتنطفئ عيون، وتفتّر شفاه وتمط

أخرى أو تتدلى، ويقبل «المعدم» على «الموسر» يستسلفه مليماً، ويحدث في عالم الصغار ما يحدث في عالم الكبار، من جود وبخل، ومن مسارعة إلى النجدة أو اغتنامها فرصة للانتقام، ومن مساومة ومشاركة ومطل، ومن تعبير بجهود يد سلفت، ومحاسبة على دين قديم، ويرجع المحرومون كاسفين آسفين، أو ناقلين ثائرين، أو راضين غير عابئين، ويقعد السعداء ويقبلون على «الصندوق» وقد نسوا إخوانهم، فكأنهم ما خلقوا ولا كانوا منذ دقائق قليلة أنداداً يتلاعبون ويفرح بعضهم ببعض ويجد في قربه الروح والغبطة والأنس، ويطل الرجل من عين في جانب «الصندوق» ويدير «اليد» فتبدو لعيوننا المشربة صور «السفيرة عزيزة» ربة الحسن والجمال، و«عنترة بن شداد» الذي كان:

يهزم الجيش أوحدياً ويلوى بالصناديد أيما إلقاء

و«الزير سالم» و«يوسف الحسن».

ويكف اللسان عن الوصف والتحدث، واليد عن الإدارة والعرض، فقد انتهى «الدور» واستوفينا حقنا، فإما «دور» آخر بملايم جديدة، وإلا فالقناعة كنز لا يفنى. وقد شببت عن الطوق جدًّا، وخلفت ورائي طفولتي التي لا تعود.

وصرت غیری فلیس یعرفنی	إذا رآنی الشباب ذو الطرر
ولو بدا لی لبتُ أنکره	كأننی لم أکنه فی عمری
كأننا اثنان لیس یجمعنا	فی العیش، إلا تشبث الذکر
مات الفتی المازنی ثم أتى	من مازن غیره علی الأثر ^١

ولكنی ما زلت أمت إلى طفولتی بسبب قوی، وما انفكت أحرأى معقودة بأولها. كنت أجلس إلى الصندوق وأنظر ما فيه، فصرت أحمله على ظهري وأجوب به الدنيا، أجمع مناظرها وصور العیش فيها عسى أن يستوقفنی نفر من أطفال الحیاة الكبار، فأحط الدكة وأضع الصندوق على قوائمه، وأدعوهم أن ينظروا ويعجبوا ويتسلوا ساعة بملايم قليلة یجودون بها على هذا الأشعث الأغبر الذی شبر فیا فی الزمان، وما له سوى أماله وهی لوافح، ونجم — سوى ذکری نورها — خافت.

^١ من قصیدتی «كأس النسیان».

لهذا سميته «صندوق الدنيا».

ولا أزال أجمع له وأحشد، وما فتئ السؤال الأبدي عندي مذ حملت الصندوق على ظهري «ماذا أصور؟» هذه هي المسألة كما يقول «هملت» في روايته الخالدة، والفرق بيني وبين هملت أنه معنيٌّ بالحياة والموت، وبأن يكون أولاً يكون، وبأن يبقى على نفسه أو يبخعها، أما أنا فلا يعنيني شيء من هذا، ولست أراني أحفل بالحياة ولا الموت، ولا الوجود ولا العدم، أو لعل الأصح والأشبه بالواقع أن أقول: إنني لا أرى وقتي يتسع للتفكير في هذا. ذلك أني صرت كالذي زعموا أنه كانت له زوجة ترهقه بالتكاليف وتضنيه بالأعمال التي تعهد إليه فيها وتأمره بأدائها، قالوا: فأشفق عليه صاحبه ورثي له، فأشار عليه أن يطلقها لينجو بنفسه من هذا العناء، فطأطأ الرجل رأسه ثم رفعه وقال: «ولكن متى أطلقها؟ لا أرى وقتي يتسع لهذا».

كذلك أنا — أنا زوج الحياة الذي لا يستريح من تكاليفها — أقوم من النوم لأكتب، وأكل وأنا أفكر فيما أكتب، ألتهم لقمة وأخط سطرًا أو بعض سطر، وأنام فأحلم أني اهتديت إلى موضوع، وأفتح عيني فإذا بي قد نسيت فأبتسم وأذكر ذاك الذي رأى في منامه أن رجلاً جاءه فنقده تسعة وتسعين جنيهاً فأبى إلا أن تكون مائة، فلما انتسخ الحلم ورأى كفه فارغة عاد فأطبق جفونه وبسط راحته وقال: «رضينا فهاهنا ما معك». وأشتاق أن ألاعب أولادي فيصعدني أن الوقت ضيق لا ينفس للعب والعبث، وأن عليَّ أن أكتب، وأرى الحياة تزخر تحت عيني فأشتهي أن أضرب في زحمتها وأسوم سرحها، ولكن المطبعة كجهنم لا تشبع ولا تمل قولة «هاهنا» وأكون في المجلس الحالى بحسان الوجوه رفاق القلوب وبكل ما كان يتحسر «مهيار» على مثله ويقول:

أه على الرقة في خدودها لوأنها تسرى إلى فؤادها

فأشرد عنهن وأذهل عن سحر جفونهن وأروح أفكر في كلام أكتبه صباح غد؛ وأشرب فلا أسهو. وأضحك لا أراني ألهو، ويضيق صدرى فأتמרّد وأخرج إلى الطرقات أمتع العين بما فيها مما تعرضه الحياة، فإذا بي أقول لنفسي: إن كيت وكيت مما تأخذه العين يصلح أن يكون موضوع مقال، فأقنط وأكر راجعاً إلى مكتبي لأكتب ... وهكذا كأني موكل بفضاء الصحف أملؤه، كما كان ذلك الشاعر القديم المسكين موكلًا بفضاء الله يذرعه.

وشر ما في الأمر أن يجيء إلى صديق فيقول: أقترح عليك أن تكتب في «كيت وكيت» وتحاول أن تفهم أن كيتا وكيتا هذين لا يحركان في نفسك شيئاً، ولا يهزان منها وتراً فلا يفهم؛ لأنه — على الأرجح — يظن أن الكتابة لا تكلف المرء جهداً، وأن القلم هو الذى يجرى وحده بما يقطر من مراعفه، وأن العقل والنفس لا دخل لهما فيما يخطه. وإذا ظللت أكتب وأكتب هكذا فماذا يكون؟ لا أقول: إنى سأفلس، فإن الحياة لا تنفك أبداً جديدة في رأى العين والعقل وهى لا تزال تسفر كل يوم عما يحرك النفس، ولكنى خليق أن أجن.. نعم، وماذا عسى أن يكون آخر هذا النصب؟ ودع الجنون، فلو كان إنسان يجن من كثرة ما كتب لكان عنوانى قد تغير منذ أعوام جديدة، ولكن تعالى نجر حساباً صغيراً نسقط منه كل ما ليس بالأدبى.

أنا أكتب في الأسبوع مقالين، فجملة ذلك في العام تبلغ المائة، وكل مائة مقال تملأ خمسة كتب كهذا، فسيكون لى إذن بعد عشرة أعوام — إذا ظللت هكذا — ثلاثون كتاباً غير ما أخرجت قبل ذلك، أى إن كتبى أنا وحدى تملأ مكتبة صغيرة يجد فيها القراء ما يشتهون ولا يعدمون منها متعة أو سلوى، وصاحبها لم يستفد إلا العناء.

والبلاء والداء العياء أن تكتب مرة مقالة فكاهية، والطامة الكبرى أن تكون المقالة جيدة، وأن تكون الفكاهة فيها بارعة. لا أمل لك بعد هذا أبداً.. لأن الناس يذهبون ينتظرون منك بعد ذلك أن تطرفهم بالفكاهات في كل مقال آخر. فإذا أخطأوا عندك ما يطلبون من الفكاهة فالويل لك، وأنت عندهم قد أصفيت، أو ضعيف لا تحسن أن تكتب، أو غير موفق فيما تحاول، حتى ولو كنت تكتب جاداً ولا تحاول أن تمزح أو تتفكه. والناس معذورون. فإن وطأة الحياة ثقيلة، وما دمت قد عودتهم أن تسليهم وتضحكهم أو أطمعتهم وأنشأت في نفوسهم الأمل في هذا فماذا تريد أن تتوقع؟ ولكن الناس — أيضاً — خلقاء أن يذكروا أن الحياة قد تكون ثقيلة على الكاتب، وأنه لعل في نفسه جرحاً وفي صدره قيحاً، وأنه عسى أن يكون ممن يودون لو يضحكون ويضحكون غيرهم، ويتمنون لو استطاعوا أن يجعلوا الدنيا جنة رفاقة البشر، ولكن هموماً تجثم على الصدور تقلص الوجه وتطفئ لمعة العين وتحبس البشر الذى يريد أن ينطلق وترد الضحكة التى كانت تهم أن تفرقع.

لقد صدقت فيما كتبت به إلى صديق على صورة لى.

أخوك إبراهيم يا مصطفى	كالبحر لا يهدأ أو يستريح
كالبحر حتى الموج يقظانه	لكنه من نفسه فى ضريح
من حوله الشيطان لا تنثنى	تحبه دون انسياج الفتوح
خلت من المعنى لحاظ له	وكانت البرق المضىء المليح
حواء يا أماء أنت التى	أورثتنى هذا البلاء الصريح
كما آدم أخرجت يا أمنا	من خلده، بعد أبينا الطليح

الخ الخ الخ.

وكما أن «صندوق الدنيا» القديم كان هو بريد «الفانوس السحري» وشريط
«السينما» وطليعتهما، كذلك أرجو أن يقسم لصندوقى هذا أن يكون — فى عالم الأدب
— تمهيداً لما هو أقوى وأتم وأحفل. وليبين غيرى القصور، فقد أضنانى قطع الصخور،
وتفتيت الوعور ...

الفصل الأول

شذوذ الأدباء

الناس متفقون على أن الأديب على العموم، والشاعر على الخصوص، صنو المجنون ونده وقريعه، وقد لا يقولون ذلك بألسنتهم ولكنهم يقولونه بسلوكهم نحوه، فهم يفترضون فيه الشذوذ عن المألوف ويتوقعونه ولا يستغربونه ويحملون كل ما يصدر عنه على هذا المحمل ويردونه إلى هذا الأصل عندهم، وليس في هذا إكبار منهم له، فإنه بسبيل من سلوكهم نحو صنوف اللتائين الذين يطلقون عليهم وصف «المجازيب» كلا الفريقين مقبول عندهم على التسامح والعطف والمرثية، ولو أن الناس رأوا رجلاً يلبس ثيابه مقلوبة، أو يمشى على رأسه وقيل لهم إنه شاعر لاقتنعوا ولبطل العجب، كأن المشى على الرأس شيء يوائم الشاعرية أو هو مما تستلزمه حين يزخر عباها ...

عرفنى مرة أحد الإخوان باثنين من الأعيان كانا معه فى مجلس فكان مما وصفنى لهما به أنى شاعر، فأبرقت أساريهما، وغمر البشر وجهيهما واستغنيا عن «ترفنا» واعتاضا منها «ما شاء الله» و(سبحان الفتاح) وأقبل على أحدهما يربت لى ظهري ويمسحه لى بكف كمضرب الكرة ويقول: «أسمعنا شيئاً» كأنما كنت مغنياً على الربابة، ولو أنى كنته لاستحييت أن أجيبهما إلى ما طلبا على قارعة الطريق ولشد ما خفت — وهما يلحان على — أن يمد أحدهما يده إلى بقرش..

وقد يتفق لى أن أكون مع جماعة من الإخوان فأفضى بالملاحظة أو الفكرة، أحسبنى وفقت فيها وكشفت عن أستاذية وبراعة ودقة فلا أكاد أفرغ منها حتى أسمع من أحدهم أن هذا «خيال شاعر» وليته مع ذلك يعنى شيئاً سوى الفوضى والهذيان وقد أسكت وأشغل نفسى عنهم بشيء أفكر فيه فأنتبه على التغامز.

والبلاء والداء العياء أن المرء يتحرى أن يجعل سلوكه مطابقاً — على أدق وجه — للعرف والعادة فى كل صغيرة وكبيرة فلا يرى أن هذا يزيده إلا شذوذاً فى رأيهم. كان

هذا الشذوذ المفروض فيه يبيح لهم أن يشذوا هم معه. كنت ليلة مستغرقاً في النوم — ولعلّي كنت أغطّ أيضاً. وإذا بالباب يقرع كأن الواقف به قد استقر عزمه على تحطيمه، ففزعت وقيمت إلى النافذة أسأل عن هذا الطارق فقال: فلان. فحل العجب والحيرة محل الفزع، ولم يكن فلان هذا ممن أتوقع زيارتهم في النهار فضلاً عن الليل، وفي الصيف فضلاً عن الشتاء ببرده القارس ومطره المنهمر، وكانت الساعة الثانية بعد نصف الليل، فلولا دهشة المفاجأة ولجاجة الرغبة في الوقوف على سر هذه الزيارة المزعجة لقفزته من النافذة بكل ما في الغرفة من أحذية ومخدرات بل لفككت السرير وهشمت له رأسه بأعمدته — من النافذة أيضاً. فقد كان فوق ذلك كله من أثقل خلق الله.

ونزلت إليه والمصباح في يدي، وفتحت الباب ووقفت في مدخله «حجر عثرة» في سبيله وبوئى لو أستطيع أن أكون «حجر منية» فجرى بيننا هذا الحديث:

هو: ليلتك سعيدة.

أنا: مصححاً — نهارك سعيد.

هو: أه صحيح.. نهارك سعيد. هل كنت نائماً؟

أنا: نائماً؟ وماذا كنت تظننى فاعلاً غير ذلك؟ أكنت تتوهم أننى هنا حارس؟

هو: ها ها.. هاهاها..

أنا: هاها؟؟ ماذا تعنى بهاهاك هذه؟ ألا تشعر أن من واجبك أن تبين لى السبب في

إزعاجى في ساعة كهذه؟ ألا ترى أن ها ها التى تملأ بها طباق الجو لا تكفى، وأن خيراً لك أن تضم فكيك قليلاً وتتكلم بلغة مفهومة؟

هو: لقد كنت أظن أنك ...

أنا: كنت تظن ماذا؟

هو: وعلى وجهه ابتسامة جعلته كجمجمة الميت — لم يخطر لى والله أنك نائم.

أنا: بصوت هادئ ولهجة مرة — ولماذا بالله؟

فترك الجواب على هذا وقال: لست أستغرب أن تتركنى واقفاً بالباب في هذا البرد

وإن كنت قد قطعت إليك أربعة كيلو مترات مشياً على قدمي، فإن لكم — معاشر الشعراء — لأطواراً وبدوات غير مأمونة.

فأطار صوابى تحميله إياى اللوم على ذنبه، ولم أعد أحفل أهو أقوى منى أم

أضعف فقبضت على عنقه وصحت به: لقد كان ينبغى أن تمشى إلى جهنم. وسأدفنك حياً إذا رأيتك هنا ليلاً أو نهاراً. أسمعت؟

ودفعته عنى فانطلق يعدو كالقنبلة.

وثم من يرانى أنسى شيئاً أو أضعه فى غير موضعه أو أهمل أمراً أو أطيل الصمت أو أفعل حتى ما يفعله الناس.. أكل أو أشرب أو أنام، إلا أحالوا على الأدب وتخلوا فيما أنا فاعل أو تارك شذوذاً ملحوظاً حتى ضقت ذرعاً بهذه الحال وصار وكدى أن أقنع كل من يتيسر لى إقناعه أنى لست بالأديب، وأن قرض الشعر لم يكن منى إلا لهواً وتسلية — وعسى أن أكون أفلحت فليس أمض للإنسان من أن يرى الناس يعدونه غير مسئول.

الفصل الثاني

الصغار والكبار

قلت لابنى عصر يوم — وفى نيتى أن أزجره زجرًا قويًا عن العبث بكل ما تصل إليه يده: «أتحب أن تخرج معى اليوم؟». وسبقته إلى الباب الخلفى المفضى إلى الصحراء وقلما كنت أستصعبه لتعذر السير عليه فى الرمال، فرمى الكرة ومضى يعدو خلفى ليلحق بى. فلما اطمأن بنا السير شرعت أستقصى معه ما يعلم وما يجهل وما ينبغى أن يعلم، وكانت خلاصة دفاعه — بألفاظى أنا لا بألفاظه هو — أنه يكلف العلم بأشياء عديدة يجد عسرًا فى فهمها وإدراكها، مضافًا إلى ذلك أنه لا يدرى كيف يمكن أن تعنيه هذه المعارف التى يطلب منه الإلمام بها؟! وأن كثيرًا مما يشتهى أن يعرفه ويلذ له ويمنعه أن يحيط به، لا يجد من يدله عليه. هذا فيما يتعلق بالعلوم والمعارف، أما من حيث السلوك والسيرة، فالمسألة أدق والمشكل أشد تعقّدًا، ذلك أنه لا يزال يلقن — فى المدرسة وفى البيت — أن للخير والشر آثارًا ونتائج تحيره جدًّا حين يتأملها أو يحاول أن يردّها إلى أسبابها، مثال ذلك: أنه غافلنا مرة واقتطف من الكرمة عنقودًا اضطره اقتطفاه إلى المخاطرة بالتسلق، وأكله، ولم يكتمنى أنه كذب حين سئل فى ذلك فقال: إن العنب كان يثب إلى فمه. ومن العجيب — فى رأيه هو — أنه كان فى ذلك اليوم أصح وأنشط وأنه لم يصبه سوء ما وأن الله لم يعاقبه لا على الكذب ولا على أكل العنب خلسة، ولا على الخطأ فى كظ معدته وإدخال طعام على طعام. ولم أكن أتوقع من ابنى هذه المحاضرة التى باغتتنى بها وعارض لى فيها الواقع بما فى الكتب وما على ألسنة المربين، فحرت ولم أدر ماذا أقول له. وتحلل العزم على تأنيبه وألفيتنى أفكر فى الطفولة وطبيعتها، وفيما نمسخ به هذه الطبيعة بما نحاول من إكراهها عليه وصبها فيه، ثم تملكنى روح العبث الذى أنكره عليه والذى كنت أهم أن أزجره عنه، فقعدت على الرمل وأقعدته أمامى وقلت له بعبارة أقرب من هذه إلى مستوى إدراكه: «اسمع.

إنى أفكر الآن فى تأليف كتاب على نمط جديد، كتاب مدرسى ولكنه يخالف كل ما فى المدارس من الكتب، كتاب لذيذ ممتع جداً، ولكنى لا أستطيع أن أضعه وحدى، بل لابد لى من معين فما قولك فى معاونتى؟ هل تقبل أن تشاركنى فى تأليف هذا الكتاب؟». فنهض إلى ركبتيه وأقبل على وجهى يربت لى خدى بكفيه الصغيرتين ويسألنى وهو يضحك: «يا بابا ماذا تقول؟».

أقول: «إنى أريد — بمعونتك — أن نصلح هذه الدنيا التى نراها — أنا وأنت — مقلوبة».

قال: «وكيف تفعل ذلك؟ وكيف أساعدك أنا؟ وماذا يسعنى؟».

قلت: «يسعك شىء كثير جداً، فليس كونك صغيراً بمانع أن يكون لك عمل كبير. ولكن لا تربكنى بكثرة الأسئلة، وخير لنا وأنجح لقصدنا أن نتقصى الموضوع على مهل. ويجب قبل كل شىء أن أكون واثقاً من استعدادك لمعاونتى ومن أنك ستفكر تفكيراً جدياً فيما يستقر عليه رأينا».

فتعهد لى بذلك. فقلت له: «أليست شكواك أن الكبار من أمثالى...».

«ليسوا من أمثالك يا بابا».

«حسن — أليست شكواك أن الكبار — غيرى — لا يحسنون تعليم الصغار

أمثالك؟».

قال: نعم.

قلت ماضياً فى كلامى: «وأن الكبار يلزمون الصغار سلوكا يبدو للصغار غير معقول ويعاملونهم معاملة يمكن أن نسميها غير عادلة؟».

قال: «نعم. وأنا أقول لك — لماذا ينبغى دائماً أن أنام فى الساعة الثامنة؟ لماذا لا

يسمح لى بالسهر أحياناً مع الكبار إلى أن أحس بالحاجة إلى النوم؟ وإذا لم أنم كما تريد جدتى — حتى فى النهار — فإنها تقول لى: إنى ولد عنيد».

قلت: «هذا صحيح وإذا اتفق أن دار أمامك حديث وبدا لك أن تقول كلمة كغيرك

من الجالسين، زعموا أن هذا منك قلة أدب وسوء سلوك «أليس كذلك؟».

فهز رأسه مرات وهو لا يستطيع النطق من الإغراق فى الضحك ومضيت أنا فى

ملاحظاتي التى شاقته وأعجبته وأرضته فقلت: «وإذا رأوك تلعب بالكرة قالوا لك: إنك

شقى وأن اللعب بالكرة غير محمود، وإذا سكت ولم تلعب ولم تتكلم، زعموا أنك سيئ

الطبع، أو ادعوا أنك مريض وسقوك على كره منك ملء فنجان من زيت الخروع...».

فقاطعني متمماً لى ملاحظاتي: «وإذا كانوا يبحثون عن شيء ولا يجدونه ظنوا أنى أنا الذى خبأته ثم إذا وجدوه حيث وضعوه نسوا أنهم هم الذين فعلوا ذلك واتهمونى أنا، وأجادلهم وأبين لهم أن لا دخل لى فى ذلك كله فيختمون حوارهم معى بأنهم تعبوا من الكلام معى كأنى أنا لم أتعب أيضاً من سماع كلامهم».

فقلت بدورى مقاطعاً: «وإذا كسروا قلة أو كوباً لم يسألوا عيونهم لماذا لم ترها؟ كأن عيونهم ليست مكلفة أن تبصر شيئاً أبعد من أنوفهم، بل راحوا يتساءلون عمن وضع القلة هنا. كأن واضعها هو المسئول...».

قال: «أما إذا كسرتها أنا فالويل لى من شيطان يجب أن يحبس فى غرفته منفرداً». قلت: «وإذا كلفوك أن تأتى بشيء ولم تجده لأنه ليس فى المكان الذى بعثوا بك إليه، أو لأن شخصاً نقله، فإنك تكون فى رأيهم ولدًا خائبًا وغيبًا لا يفهم».

قال: «وأنا دائماً المخطئ وهم أبداً على صواب حتى صرت واثقاً أنى لا يمكن أن أكون مصيباً فى عمل أو قول، وهذا يحيرنى جدا ويربكنى يا بابا».

قلت: «أظن الآن أن موضوع الكتاب صار واضحاً ظاهر الحدود بين المعالم، وسنقلب فيه المسألة ونجعل الصغار هم العقلاء الحكماء الذين لا يخطئون أبداً، والكبار هم الأغبياء البلاء الذين لا يصيبون والذين يحتاجون إلى الرقابة والإرشاد والتأديب والزجر».

فطار الغلام من الفرخ، ووثب على رجليه وانهال على تقبيلاً وألح على بالسؤال — «أصحيح ما تقول يا بابا؟».

قلت: «نعم. وسنسماه: (المختار فى تهذيب الكبار) ونجعل الصغار هم الذين يبقون فى البيت لتدبير شئونه، والكبار هم الذين يذهبون إلى المدرسة ولبسهم ما يلبس التلاميذ والتلميذات الآن من البذلات القصيرة ونقص لجدتك شعرها ونخرجها فى قبعة من قبعات البنات الصغيرة ونضع لها على صدرها (مريلة) ونبعث بها إلى المدرسة، وإذا لم تحفظ دروسها عاقبناها بالوقوف ووجهها إلى الحائط، وإذا أكثرت من اللعب حرمانها الحلوى وإذا لم تنم فى الساعة الثامنة عددناها سيئة الخلق عنيدة ولم نخرج بها للرياضة يوم الجمعة».

قال: «ويجب أن نحرم عليها اللعب إلا مع لداتها من الجدات نظائرها وإذا وجدناها تلاعب واحدة من الشواب عاقبناها بالحبس فى غرفتها وإذا جلست ساكنة أو لم تتناول طعامها بإقبال أنمناها فى سريرها وجرعناها ملء كوب من زيت الخروع

وإذا كرهت طعمه أو تفرزت من مذاقه قلنا لها: إنه يفيدها وإننا نحن نعرف ما يصلح لها وما لا يصلح وإذا جلست معنا واشتركت في الحديث انتهرناها بنظرة، فإذا لم تكف أفهمناها أن الكبار لا يصح أن يقاطعوا الصغار ...».

قلت: «وإذا سألتنا — أعنى إذا سألت الصغار — عن شيء نهله قلنا لها: إن هذا الأمر لا تستطيعين فهمه وإدراكه الآن والسيدة المهذبة يجب ألا تكثر من الأسئلة أو تحشر أصابعها فيما لا تفهم».

قال: «وإذا أكلت من الشيكولاتة أكثر مما يوافقها لا نأخذها إلى السينما وحرمانها مناظر شارلى شابلن وأضرابه».

ثم رفع إلى وجهه وقد بدت عليه أمارات التفكير الجدى وسألنى: «ولكن هل نسمح لها بالاختلاط بالرجال وملعبتهم؟»

قلت: «بقدر. وعلى أن يكون لنا — أعنى للصغار — حق المراقبة والتدخل إذا وجدنا أن الضرورة تقتضى ذلك».

قال: «والدروس التى نتلقاها الآن ألا يتغير منها شيء؟»

قلت: «أكثرها يبقى كما هو، ولكن الموضوع من كتب المطالعة والمحفوظات يتغير لأنه فى الأصل مجعول للأطفال، وهذا يعود بنا إلى مشروعنا، فإن الذى أفكر فيه وأريد منك أن تعيننى عليه، هو كتاب يحتوى طائفة متخيرة من القصص والموضوعات يتعلم منها الكبار آداب السلوك وما لهم وما عليهم فى الحياة، والواجبات المفروضة عليهم نحو الصغار أولياء أمورهم، ولذلك ينبغى أن يلغى من الكتب أمثال (سمير الأطفال) و(القراءة الرشيدة) للأطفال فإنها جميعاً لا تصلح لمشروعنا».

قال: «ومن يؤلف هذه القصص؟».

قلت: «أنا وأنت، ولسنا نحتاج إلى تعب كبير لأن الأمر لا يتطلب فيما أقدر — إلا تحويراً قليلاً يجعل القصة للكبار بدلاً من الصغار».

قال: «وهل نطبع الكتاب ونبيعه؟».

قلت: «ولم نتكلف وضعه إذا لم نطبعه ونبيعه؟»

قال: «وهل يشتريه الكبار ويقرأونه؟».

قلت: «إذا لم يفعلوا فإن فى وسعى أن أوعز إلى نفر من أصدقائى بأن يحملوا فى الصحف على الكتاب حملة عنيفة، وبأن يصفوه بأنه مخالف للآداب ومناف لكل ما درجت عليه الإنسانية، وهذا وحده كفيل بترويجه».

قال: «وهل كل ما يخالف الآداب يطلبه الناس؟».

قلت: «لا أستطيع أن أقول: نعم أو لا، ولكن الذى أريد أن أقوله: هو أن حب الاستطلاع يدفع الناس إلى طلب هذا الكتاب الفريد في بابهِ».

قال: «وكيف تقرأه جدتى وهى أمية؟».

قلت: «إن الأمية الفاشية بين الكبار من أمثال جدتك مما يسوغ مشروعنا ويجعله ضرورياً، أليس الواقع الآن في الأغلب والأعم أن الجهلاء هم الذين يتولون تربية المتعلمين أمثالنا أو توجيههم في الحياة واختيار ما يصلح لهم؟ والأمر ينبغى أن يكون على نقيض ذلك».

قال: «ولكن إذا لم نحسن تدبير المنزل أو إذا لم تُجد الصغيرات مثلاً طهى الطعام وتذمر منه الكبار؟».

قلت: «لن يعوزنا كلام نسكتهم به كما يفعلون بنا الآن، وما علينا إلا أن نتهمهم بالبطر والتدلل القبيح ونزجرهم عن ذلك».

فضحك وقال: «إنك ماهر جداً يا بابا، ولابد أن يكون الكبار قد ضايقوك جداً في صغرك فأنت الآن تريد أن تنتقم منهم».

ثم ألقى إلى نظرة خبيثة وهو يسأل «هل كان أبوك ثقيلاً يا بابا؟».

فتماسكت بجهد وسألته بدورى: «ثقيلاً مثل من؟».

قال: «لا أعنى مثل أحد ولكنه سؤال، فهل أخطأت فيه؟».

قلت: «كلا ولم يكن أبى ثقيلاً فيما أذكر، وعلى أنه لم تتح له معى فرصة كبيرة لذلك، فقد مات وأنا صغير».

وهنا رأيت أن الأحزم أن نعود مخافة أن يسترسل في مثل هذه الأسئلة المخرجة، التى جرها على التبسط معه في هذا الموضوع. والأطفال — كما يعرف ذلك من كابدهم — لا يستطيع المرء أن يتكهن بما يجرى في رءوسهم أو يعرف ماذا يتوقع منهم فإن لهم وثبات غير مأمونة.

فنهضت وطلبت منه أن يفكر في الموضوع، وبينما كنا عائدين سألتنى فجأة: «وأنت يا بابا هل نضعك مع الكبار أم مع الصغار؟».

فدفعت الباب ولم أحر نطقاً.

الفصل الثالث

الحقائق البارزة في حياتي

تمهيد — حدث منذ عامين، أو نحو ذلك.. أن حرمت الجريدة التي كنت أتولى رئاسة التحرير فيها، حقًا، ولا داعي هنا لبيان الموضوع فقد مضى أوانه، وليس هذا على كل حال محله، فكتبت على أثر ذلك مقالًا قويًا — أو لعل الأصح أن أقول: إنه عنيف — نقلته صحيفة فرنسية بفصه ونصه، وبعد يوم وجدت على مكتبي بطاقة (دكتور) يرسل صحيفة نمسوية وكلما في ظهر البطاقة حسبه في أول الأمر ألمانيًا ثم قيل لي: إنه فرنسي ثم تبين أنه إنجليزي فاقتنعت ولم أوصل البحث مخافة أن يتضح أنه عربي وأوجز فأقول: إنني استقبلت الزميل الفاضل في مكتبي في الساعة التي اتفقنا عليها تليفونيًا. ولم يتجاوز الفرق بين ما فهمته أنا وما فهمه هو أربع ساعات لا أكثر، فكنت أنا جالسًا أمام مكتبي في الساعة الثالثة مساء ووافاني هو في الساعة السابعة مقدمًا بين يديه اعتذاره من حضوره قبل الموعد بنصف ساعة، ودار الحديث بيننا فأفضيت إليه بجواب ما أعتقد مخلصًا أنه سألني عنه وبإيضاح ما أشكل عليه فهمه من موضوع الخلاف السياسي ومواقف الأحزاب في ذلك الوقت وما إلى ذلك مما يتصل به من قريب أو بعيد، واعتقدت أن الأمر انتهى عند هذا الحد ولم يخالجنى شك في أن الله أرحم من أن يبلونى بحديث آخر، ولكن المقادير جرت — لسوء الحظ أو لحسنه — بغير ذلك فعاد الدكتور الفاضل يرجو منى شيئًا آخر لا أقل من أن أتفضل عليه بترجمتي أو تاريخ حياتي وكان الدكتور أظرف وأكبر من أن أرفض له طلبًا، ولكن تاريخ حياتي!!.. تصور هذا؟ فأحلته أولًا على ترجمة كنت قد كتبتها منذ سنوات تمهيدًا لمختارات من شعري وقد نشر ذلك كله في كتاب «شعراء العصر» ولكنه اعتذر وقال: إنه فهم من كلامي أن الترجمة مكتوبة باللغة العربية وأن الكتاب مطبوع في سوريا ووقته أضيق من أن يسمح له بالسفر إلى ذلك القطر وإن كان لا شك عنده في أنه لو تيسر

له السفر لألفى الترجمة التى أشير إليها وافية بالعرض ثم تفضل فذكر لى أنه علم من بعض من اتصلت أسبابه بأسبابهم من المصريين أنى من رجال المدرسة الحديثة فى الأدب وأن هذا هو الباعث له على الإلحاح على فى الرجاء أن أوافيه بترجمتى، فسرني هذا ورأيت فيه فرصة لانتشار اسمى إلى ما وراء مصر واستفاضة ذكرى على السنة الغربيين. وتوقعت بعد أن أجيبه إلى سؤاله أن يتقدم إلى واحد أو اثنان أو ثلاثة من ناشري الكتب فى أوروبا يطلبون السماح لهم بترجمة كتبى وإذاعتها فى العالم الغربى، فلا يعود المازنى بعد محتاجاً إلى وظيفة ثقيلة مضنية كرياضة التحرير فى صحيفة يومية. ففركت يدي مغتبطاً وقلت له: إنى طوع أمره ورهن مشيئته ولكن بى حاجة إلى يوم أو يومين أجمع فيهما الحقائق البارزة وأحضرها إلى ذهنى استعداداً للإجابة وفى اليوم المعين تلاقينا فدار بيننا الحديث الآتى:

هو: إنى مستعد يا سيدى. تفضل.

أنا: أرجو أن تغفر لى لهجة الزهو التى قد تحسها من كلامى ولا شك أن التواضع فضيلة ولكن الحقيقة أسمى وأجل. أليس الأمر كذلك؟

هو: بلاريب.

أنا: والحقيقة أنى من بيت قديم عريق جداً يستطيع أن يحدثك عنه آلاف من الناس لوكلفت نفسك سؤالهم.

هو: لا شك عندى فى ذلك يا سيدى (وانحنى لى).

أنا: وأنتم معشر الأجانب تشمخون علينا بأنوفكم كأن بلادكم هى وحدها التى تعرف الأرستقراطية؛ لأن فيكم من يستطيع أن يعد عشرة أو عشرين من الجدود. ولعل أكثرهم كان من الفتاك وقطاع الطرق. فأنا فى مقدورى أن أتلو عليك أسماء مئات من الجدود لا عشرة ولا عشرين ليس من بينهم إلا من هو مستفيض الذكر. ولن تجد أعتق من هذا النجار ولا أعرق من ذلك الفخار.

هو: آه؟

أنا: نعم يا سيدى فإن جدى الأعلى رجل لا شك عندى فى أنك سمعت به وقرأت عنه إن كنت قد قرأت شيئاً.

فبدا عليه الاهتمام ورفع سن القلم عن الورقة ومنحنى أذنه — واحترامه أيضاً — وقال — وقد رأى سكوتى ريثما يتم أهبتة — (إنى مصغ).

أنا: وهو لا أقل من آدم نفسه.

فوقع القلم من بين أصابعه وهوت يده إلى جانبه وخيل إلى لحظة أنه سيسقط عن كرسيه عجزاً عن احتمال كل هذا المجد وسرنى أن أرى فعل كلى فى نفسه، ولكنها لم تكن سوى لحظة ثم نهض فجأة ومد إلى يده فنهضت مثله ومدت له يدى وقد ظننت أنه سيستأذن غير أنه خيب أملى وقال:

هو: لى الشرف يا سيدى بأن أقول لك: إنى أيضاً أمت إلى هذا الشيخ الجليل بسبب، وتحقيقاً لذلك أقول: إن جدتى العليا حواء فنحن إذن قريبان.

فهزرت يده سروراً بهذه القربى وقلت:

أنا: لقد سهلت على الأمر جداً فما أظن بك — وأنت غصن من هذه الدوحة الفيانة — إلا أنك تعرف كيف كانا فى الجنة وماذا أخرجهما منها وكيف قتل جدى قابيل جدى هابيل وإن كانت الكتب تقول: إن أحدهما مات ولم يعقب ولداً، وأظن جدك القتل، وغير ذلك من الحوادث البارزة التى لا تزال طبقة ترويه عن طبقة وجيل يتلقفها من جيل إلى يومنا هذا، فلنمض إلى من هم أقرب إلينا.

هو: إن أسرتنا الكريمة أشهر من أن تحتاج إلى تعريف فأرجو ألا تجشم نفسك..

فلم يعجبنى أن يحشر نفسه فى أسرتى بعد أن أخرجته منها ونويت ألا أعده — فيما بينى وبين نفسى — إلا من سلالة معاتيق جدى قابيل، بيد أنى كتمت هذا وقلت مقاطعاً له:

أنا: سأقتصر على واحد أو اثنين من مشاهير أجدادى الأقربين لتعرف من أية أئكة كريمة خرج هذا الفرع الذى يتشرف بأن تراه أمامك (انحاء منه ومنى) فمنهم: مالك بن الربيع بن حوط المازنى وكان زعيماً لقومه وبلغ من قوته وسطوته أنه كان ورفقاؤه — أعنى أتباعه — يقطعون الطريق على رعايا الخليفة ويسومون الناس ما شاءوا غير أن الخليفة لم يحتمل هذه المنافسة ولم يطق صبرا على هذا المزاحم فطلبه، وكان مالك قد رأى أن البلاد لم يبق بها ما يستحق أن يؤخذ فتركها للخليفة ومضى بثلته إلى فارس حيث لم يكف عن ركوب الناس بالأذى حتى أجرى الوالى عليه مبلغاً شهرياً فلم توافقه هذه الحياة الوديعه فمات بعد الكف بقليل.

ومن مشاهيرهم: هلال بن الأسعر المازنى، كان رجلاً فيه فكاهة عملية وكان يحلو له أن يركب الناس بالدعاية فكان يشحذ سيفه القديم ويخرج في الظلام فإذا مر به أحد شكه بالسيف في بطنه فيثب ثم يقع على الأرض فيغرب جدى في الضحك وتذهب إليه ويلطفه ويخفف عنه حملة، إلا لقد كان مفطوراً على الفكاهة.

ومن أكرمهم أيضاً: مسعود بن حرشة المازنى كان شديد العطف على الناس والمرثية لهم فعاش عمره لا عمل له إلا إراحة إخوانه في الإنسانية من الإبل ومما يحملون ولكن حساد فضله وشوا به لعامل الخليفة فقطع له نصفه الأعلى وعلقه في مكان ظاهر في سوق كبير وأتاح له بذلك أن يشرف على الناس ويتأملهم زمناً كافياً.

هو: قد اقتنعت يا سيدى بأن فرعكم أنبل وأشرف، وبودى لو تسمحون لى بطائفة قليلة من الأسئلة عن شخصكم الكريم مخافة أن تنسوه في وسط هذا العباب الطامى من المجد التليد.

فلم أرتح إلى هذه المقاطعة التى لا شك عندى فى أن الحسد هو المغرى بها. كنت أريد أن أغمره بسيل من هذه الحقائق التى ترفع الرأس وتطيل القامة غير أنى قدرت أن الفرصة لم تضع، وأنها لا محالة سائحة فقلت له: تفضل.

هو: كم عمرك؟ إذا جاز أن أتقدم إليكم بمثل هذا السؤال.

أنا: سيكون فى أغسطس المقبل — فى ٩ أغسطس — عشرين سنة.

هو: كيف؟ عشرون سنة فقط.

أنا: نعم؟

هو: وهل تسمح لى أن أسألك فى أى سنة ولدت؟

أنا: إذا لم تخنى الذاكرة فإنى ولدت فى سنة ١٧٩٠ ميلادية.

هو: ١٧٩٠؟؟! كيف يكون هذا ممكناً؟!

أنا: لا أدرى وهذا بعض ما أعجب له؟

هو: ألم تقل: إن عمرك عشرون سنة؟

أنا: نعم.

هو: ولكن عمرك — إذا حسبناه من تاريخ ميلادك — يكون مائة وستا وثلاثين سنة، فكيف تعلق هذا التفاوت؟

أنا: لا أعلمه. وكثيراً ما عجبت له. وإذا كان هناك تفاوت فلا شك أن مرجعه إلى أنه فاتنى أن أدون هذه الحادثة السعيدة ساعة وقوعها.

ورأيت فرصتى سانحة فاغتنمتها لأكر إلى مجد أجدادى فقلت:

أنا: أزيد على ذلك إنى ولدت بغير أسنان، فأنا لهذا أفضل كثيرين من الآدميين غير أن هذا حرمنى القوت زمناً طويلاً فلبثت لا أطعم غير اللبن، وهذا تعليل ضالة جسمى واضطرابى بسبب ذلك إلى القعود عن المعالى التى كلف بها أجدادى الأمجاد من أمثال ابن أبى سعيد المازنى. فقد ولد بأسنانه كاملة وكان مبطناً أكولاً وفحلاً عظيماً مرهوب الجانب، وعرف له الخليفة فضله فاخصه بغرفة فى قصره وأقام له عليها اثنين من الحجاب وأمرهما ألا يدعاه يجشم نفسه حتى الخروج من الغرفة وأن يقوموا هما بخدمته فبقى فى هذا القصر مكرماً مبعلاً مخدوماً تسعة عشر عاماً ومنهم أيضاً أبو هلال بن ...

هو: مهلاً يا سيدى فإن الرجوع إلى هذا معناه الشك فى صدق ما جاهرت به من اقتناعى بكرم محدك، فهل تسمح لى بأن أسألك متى اشتغلت بالصحافة؟
أنا: فى ١٨١٩.

هو: كيف؟ وعمرك كما تقول دون العشرين؟

أنا: لا أدرى!. وهذا أيضاً بعض ما يحيرنى.

هو: إن هذه التواريخ لا أمل فى إصلاحها على ما يظهر فلنسأل عن شيء آخر، هل لك إخوة؟

فاغتنمت هذه الفرصة لأطير له صوابه.

أنا: دعنى أفكر، نعم، كان لى أخ.. فى الرضاعة.

هو: ماذا تعنى؟

أنا: أعنى أنه كان ابن مرضعتى.

هو: وهل مات؟

أنا: لا أدرى.

هو: بتأثر — اختفى فلم تسمعوا عنه خبراً؟

أنا: كلا. بل دفناه.

هو: دفنتموه؟ هل تريد أن تقول: إنه دفن دون أن تعلموا أحيى هو أم ميت؟

أنا: كلا. فما من شك أنه كان ميتاً.

فضحك وقال: مات ودفن فماذا تريد؟ أظن أن المسألة واضحة جداً فماذا يحيرك

فيها؟

أنا: أظن أن المسألة واضحة؟ ربما. أما أنا فأخالفك.

هو: لماذا؟

أنا: لأنى لا أدرى إلى هذه الساعة أينما الذى مات أنا أم هو؟

أفهمت الآن؟

فانطلق يقهقه كأنما كان فى جوفه رعد مخزون وصبرت عليه حتى فرغت الذخيرة ثم قلت له بلهجة غريبة مرعبة: «هل تستطيع — إذا قصصت عليك القصة وأفضت إليك بالسر أن تنبئنى عنم يحدثك الآن. أهو المازنى أم من كان ينبغى أن يكون خادمه وإن كان أخاه فى الرضاعة».

فارتبك وبدت عليه دلائل الحيرة والدهشة وعلا وجهه السهوم. فاغتبطت وأقسمت لأزيدنه ارتباكاً ولأطيرن من رأسه هذا الولع بتراجم الناس فقلت: «اسمع يا صاحبى، لقد كان لمرضعتى طفل فى مثل سنى وكان شديد الشبه بى، وكان يلبس من ثيابى فيزيد الأمر بيننا اختلاطاً، وما أكثر من كان يتوهم أننا توعمان، وكثيراً ما كان يقضى هذا الولد لياليه فى غرفتى على أنه أنا بينما أكون أنا نائماً مع الخادمة، وهكذا نشأنا، فشبت أنا على أننى المازنى وشب هو على أنه الخادم وقد يكون الأمر على خلاف ذلك، وما يدرينى ويدريك أن الأمر لم يختلط على ظئرى وهى تغسلنا فى الحمام؟ ولا أطيل. كبرنا نحن الاثنين، المازنى وخادمه محمد، أو محمد وخادمه المازنى، فما أدرى الآن من أنا على التحقيق؟ كبرنا إذن وسرق الخادم مرة من الجار فحبس لذلك بضعة شهور لا أذكر عددها، وعسى أن يكون المازنى هو الذى سرق وحبس خادمه، ربما، ولكن هذا لا

قيمة له، فكثيراً ما كنت أنا أخطئ ويضرب خادمى عنى أو بعبارة أخرى ربما كانت أصح وأقرب إلى الحقيقة، كثيراً ما كان هو يخطئ وأضرب أنا عنه — هذا إذا ذهبنا نعتبر الخلط الذى لعله أصاب عنوانينا أو اسمينا.

هو: أرجو المذرة، ولكن هل من عادة المصريين أن يضربوا خدمهم إذا أخطأ أبناؤهم؟

أنا: لست أعلم أن هذه عادة أحد من المصريين، ولكنى أريك بعض آثار التشابه بينى وبين الخادم واحتمال التصاق الاسم بغير صاحبه.

هو: ولكنى لا أفهم..

أنا: ستفهم كل شيء إذا تريت قليلاً، ولم يقلع الخادم عن السرقة والتلصص، أو لم يكف المازنى عنهما فما يعلم الحقيقة غير الله، ومن لعله خلطنى به فى الحمام ونحن طفلان رضيعان؟ فألف الإجماع، واتفق فى ليلة أنه كان يسطو على بيت فأحس به السكان ففر إلى السطح على نية الوثوب من سطح إلى سطح وهكذا حتى يهتدى إلى طريق مأمون للهبوط إلى الأرض، وبينما كان ماشياً على سور أحد السطوح زلزلت الأرض فهوى ومات والآن نبئنى إذا استطعت أينما الذى مات؟؟ أهو أنا أم هو؟ أهو المازنى أم خادمه؟

هو: ألم يكن هناك شيء — علامة مثلاً — تميزكما؟

أنا: وإذا تذكرت ما قصصته عليك عن آبائى وأجدادى الأماجد وما كانوا يتوخونه جميعاً من الأساليب لاكتساب رزقهم، وبعبارة أخرى أخشى إذا تذكرت أنهم كانوا جميعاً بفضل الله فتاكاً وقطاع طرق ولصوصاً، ألا يكون الأقرب إلى المعقول والأشبه أن يكون الخادم المتلصص هو المازنى وأكون أنا الذى وقعت من فوق السطح ومت؟

هو: لا أنكر قوة منطقك ولكنى أسألك مرة أخرى — ألم تكن ثم علامة تميزكما؟

أنا: هل تحسبنى أبله؟ وفيم إذن قلت لك: إن للمسألة سرّاً؟

فأبرقت أسارير وجهه ولع السرور فى عينيه وقال: لا أحسبك تظن على بطل هذا اللغز بعد أن أوجعت رأسى بعقده؟

أنا: كلا! لقد كان هو أسود زنجياً وأنا كما ترى أسمر؟؟

فنهض وانحنى وقال: «أشكرك».

ولم أر بعد ذلك وجهه.

الفصل الرابع

اللغة العربية بلا معلم

وقفت مرة بباب مكتبة أتأمل معروضاتها من وراء الزجاج، فأخذت عيني كتيبًا صغيرًا يعلم الأجانب (اللغة العربية بلا معلم) فراعنتني هذه الجراءة، وتمثل لخاطري ما يكابده الأساتذة من العناء في تدريس هذه اللغة، بل ما نعانیه نحن الذين نزع أنفسنا أدباء وشعراء من البرح والجهد ولا أطيل — اشتريت الكتاب بثمن باهظ ثم انتحيت ركنًا في قهوة ورحت أقلبه فإذا هو لا أكثر من ألفاظ ومحادثات باللغة الإنجليزية وما يقابلها باللغة العربية، فتحسرت على ما بذلت فيه، وساءلت نفسي — ماذا أصنع به؟ كيف أعوض خسارتي؟

والله أكرم من أن يضيع على فقير مثلي ماله إذا صح أن تسمى القروش مالا. فألهمني أن أنتزع منه متعة لا أظن مصرياً غيري حلم بها أو طمع فيها. ذلك أنى فرضت — جدلاً — أنى (مالطى) واتخذت هذا الكتاب مرشدًا لى وقلت أتقيد بجمله وعباراته فى المحادثات التى أضطر إليها فى تجوالى فى المدينة.

ولما كنت (سائحًا) وشوارع المدينة متداخلة تضل الغريب فقد وجب — طبقًا لمشورة الكتاب — أن أركب (عربة) وأن أحتمل هذا الترف الضرورى، ففتحت الصفحة الثانية عشرة حيث الحديث مع سائق العربة ودنوت من (الموقف) وأشرت بعضا اشتريتها خصيصًا لهذه المناسبة السعيدة وصحت بلسان ملتو (أرجى) فألهب السائق جواده وعدا إلى بهما، فلما صار عندى عدت إلى الكتاب أستوحيه الجملة الثانية التى ينبغى أن تتلو النداء، ثم رفعت إليه رأسى وقلت «روه هات أربه».

فكأنى لطمت الرجل على وجهه. فانطلق يمطرنى وابلاً من الكلام لم أفهمه كما هو المفروض إذ كنت غريبًا عن هذه الديار ولكنى تبينت من لهجة الرجل وإشاراته أن المعانى جميلة جدًا وأن جملى راقته كما لم يرقه شىء فى حياته.

وعدت إلى الكتاب أستمليه الجملة الثالثة لعلها تحل الإشكال فقلت: «يا أربجى أنت فاضى؟»

فرمانى بنظرة مغيط محنق لم أدر ما مسوغها، ثم رفع طرفه وكفه إلى السماء، ثم صاح بالناس فالتف حولى منهم اثنان كلمنى أحدهما بالفرنسية فهزرت له رأسى فخاطبنى باليونانية، فظلت أهر له رأسى، فجرب الثانى الإيطالية فأشرت له بإصبعى أن لا. وخفت أن يطول الأمر فرددت عليه بالإنجليزية فاستغرب وجعل يرفعنى ويخفضنى بعينه. وأوجز فأقول — إنى حسماً للنزاع ركبت وقلت للسائق — بعد أن تجاوزت عن جملتين من الكتاب «طيب اذهب بى إلى المهطة».

فانطلقت العربية، وبديهى أنى كنت أوتر مكاناً آخر ولكنى كنت مقيداً بالكتاب، فلما انتهينا لم أنزل وصحت به — نقلاً عن مرشدى — «كم تريد أجرة لك». وكان ينبغى أن يقول — طبقاً للكتاب — واحد شلن. ولكنه طلب نصف ريال فدهشت وبحثت فى غلاف الكتاب عن تاريخ طبعه فألفيته ١٩٢٦، فقلت لنفسى لعل الأجور ارتفعت فى هذا البلد بعد صدور الكتاب، وكان على أن أناقشه كما يحتم الكتاب فقلت: «لا، هذا كثير».

وكان ينبغى — على ما رسم الكتاب أن يكون رده على ملاحظتى «كما فى التعريف» غير أنه بدلاً من أن يفعل ذلك مضى يشتمنى ويسبنى ويلعن لى آبائى وجدودى وهو آمن مطمئن إلى جهلى بلغته البذيئة على الأقل. فلم أر مناصاً من أن أعد لعناته مرادفة للرد الواجب ونقلت له من الكتاب «سته كروش أبيض بس».

فحصبنى بملء صحراء من اللعنات والشتائم ثم قال: «هات بقى». ففهمت هات لأنها من الكتاب وتجاوزت عن باقى «بقى» على اعتبار أنها على الأرجح كلمة شكر أو دعاء وناولته القروش الستة البيضاء. وإذا به يثب على الأرض ويجذبى من جيب سترتى ويصب على من السباب ما يكفى شعباً بأسره جيلاً كاملاً. فما أشد إسرافه قاتله الله. وتنازعنى الضحك والغضب والخوف. ولكنى ضببت عواطفى وصوبت عينى إلى الكتاب ثم رفعت له وجهى وقلت: «ودينى الكشلة»^١. فقال «الكشلة؟ يا خبر أسود يا ناس. تعالوا انظروا هذا يريد أن يدعى أنى كسرتة ...» وهكذا وهكذا مما يستطيع القارئ أن يتصوره ولا حاجة بنا إلى وصفه.

^١ الكشلة عامية ومعناها المستشفى، ولا تكاد تذكر إلا مقرونة فى الذهن باليأس من حياة المريض.

ولم أدع أنا شيئاً من هذا، ولا خطر لى أن أفعل، ولكنه الكتاب استوجب منى أن أذهب إلى القشلة بعد أن حملنى إلى المحطة ولا موجب لهذا ولا ذاك ولكن هكذا شاء فكان ما أراد فرأيت الأحزم أن أنتقل إلى الجملة التى تلى «القشلة» فقلت «طيب اعمل فسهة فى البلد».

فلم يدر أيشتم أم يضحك. وبعد أن تأملنى قليلاً قال: «يا بن ... من القشلة للفسحة؟»

وبينما كان هو يصعد إلى مقعده كنت أنا أترجل. فالتفت إلى مذهولاً، فأنقذته القروش العشرة وقلت له «لا مؤاخذه لقد كنت أمزح» فحار كيف يعتذر عن شتائمه ولعناته..

سأجرب فضل الكتاب فى نزوة أخرى استخلاصاً لحقى.

الفصل الخامس

أشق المحادثات

محادثة الصم أشق شيء بعد محادثة النساء. إذا صح أن الرجل يتحدث أو تتاح له فرصة الكلام وهناك امرأة. والفرق بين الحالتين — أعنى بين محادثة الصم ومحادثة النساء — أن المرء في الحالة الثانية لا يزال يفتح فمه، كلما توهم أن الحظ قد أسعفه بفرصة، ولكنه فيما أعلم لا يجاوز التأتأة أو الفأفأة أو غير هذه وتلك مما هو منهما بسبيل، ولا يكاد يزيد على «أ أ أ»، ثم لا يرى معدى عن إطباق فمه، وهكذا فلو أتيح لك أن تراه وهو يفتح فمه ثم يطبقه مرة بعد أخرى — دون أن تعلم أن هناك امرأة تتحدر كالسيل — لظننته يتشاءب من فرط الملل والوحدة، وشر ما في الأمر أن المرأة لا تنفك تنكر على الرجل صمته وتستهنه منه أو تعده دليلاً على أن في نفسه شيئاً من ناحيتها. وليس من الميسور أن يقول الرجل منا لأمه أو زوجته أو أخته أو لأية سيدة محترمة: إن علة صمته أنها هي لا تكف عن الثثرة. كلا هذا لا سبيل إليه فإن عاقبته أوخم، فهي ورطة كما ترى لامخرج منها.

فرص الكلام معدومة أو هي في حكم المعدومة، والمصارحة مستحيلة والصبر على اللوم والتأنيب والاثهام عسير، فماذا يصنع المرء؟ توهمت مرة أنى اهتديت إلى تعليل للصمت المفروض على والمستهنج منى في وقت معاً. فقلت لمن كانت تلومنى: «ألا تعلمين أنى مدرس؟».

قالت: «وما دخل هذا؟».

قلت: «إذا أكثرت من العمل بيدك ألا تتعبان؟».

قالت: «نعم ذلك..».

قلت: «وإذا مشيت بضعة أميال ألا تتعب رجلاك؟».

قالت: «هذا صحيح ولكن..».

قلت: «تمهلي، وإذا تعبت يداك أو رجلاك فكيف تريحينهما؟»

قالت: «بالكف عن العمل أو المشي».

قلت: «انتهينا. أنا مدرس وليس لى من عمل طول النهار إلا إدارة لسانى فى حلقى،

فمن حق هذا اللسان أن يستريح بعد الجهد الشاق الذى بذله».

فاقتنعت يومئذ، وبعد بضعة أيام كنت جالساً معها، صامتاً كما هو مفهوم

بالبداهة فدننت منى وقالت: «اللسان يتعب؟ أليس كذلك؟».

فأدركت أن وراء هذا السؤال أمراً، وقلت: «نعم. شأنه شأن كل عضو آخر».

قالت: «فما لفلانة المعلمة لا تكف عن الكلام فى ليل أو نهار؟».

والخلاصة: أننى أشك فى أن آدم هو الذى سمى الأشياء. وما أظن إلا أن حواء هى

التي يرجع إليها الفضل فى ذلك، فما أحسبها تركت له فرصة يفتح فيها فمه ولا سيما

إذا ذكرنا أن آدم كان الإنسان الوحيد الذى كانت تستطيع أن تكلمه فى الجنة، وأنه

لم يكن معها سواه فكيف استطاع أن يجد الوقت اللازم للتفكير فيما يناسب الحيوان

والنبات من الأسماء؟! بل ما أظن أن آدم قد أكل من الشجرة المحرمة لأن حواء أغرته أو

لأن الشيطان وسعه أن يزين ذلك له، بل لأن الأكل من هذه الشجرة له عواقبه، ومنها

الموت وانتفاء الخلود وتلك وسيلة للخلاص يكمل ارتقابها مع الصبر. فما أعظمها من

تضحية يجب أن نذكرها لأبينا الشيخ المسكين!

أما محادثة الصم فشئ آخر مختلف جداً، هى صياح من جانب وبعثرة من الجانب

الآخر، وأعنى بعثرة المواضيع التى يمكن أن يدور عليها الحديث زمناً معقولاً إذ لا

سبيل إلى حصر الذهنين فى موضوع واحد وقتله — أعنى قتل الموضوع — ولنضرب

مثلاً: تضع يدك إلى جانب فمك وتصيح فى أذن صاحبك: «متى اشتريت هذه النظارة».

فينظر إليك أولاً كأنما يريد أن يقرأ فى عينك أو فى وجهك كله ما سمع ثم يقول

بصوت لا تكاد تسمعه ولعله يحسب أنه يصيح مثلك: «أى نعم وزارة المعارف».

فتصيح مرة أخرى وتصنع من كلتا يديك بوقاً لأذنه. «النظارة. النظارة. أنا أسأل

عن النظارة».

فيقول: «آه. ربما. ربما. فإن الأزمة حقيقة حادة».

ويخطر لك أن تغير الحديث فتصب هذه الصيحة فى أذنه أو تطلقها فى الهواء —

سيان: «هل قرأت مقالتي الأخيرة؟».

فيقول: «لعنة الله عليها لقد كادت تخنقني. وقد غشني من مدحها لي». فتبدى أمارات الدهشة وتلعنه بصوت عادي فيقول: «لا تعجب فإنها جهة مشبعة بالרטوبة، والبعوض فيها كالنحل. كلا. لقد شبعت من المنيرة وسأنتقل إلى جهة أخرى». وهكذا. تنتقل من موضوع إلى موضوع بلا فائدة حتى يبح صوتك. والنساء شر لابد منه وكثير ما تنسيك حلاوته مرارته ولكن المرأة الصماء..؟ هنا يحسن السكوت.

من ذكريات الصبا: بين رجال الليل

وقعت مرة على عصابة من اللصوص، وكنت في ذلك الوقت صبيًا في الثالثة عشرة من عمري الذي أراه ينوى أن يطول بلا مسوغ، وكنت عائداً من مكان قريب من مسجد عمرو إلى الإمام عن طريق الصحراء الفاصلة بينهما، وكان الليل قد أُمسى وانتشر الظلام على الأرض، ولم يكن شارع «كتشنر»^١ قد شق وعبد. فكان السارى لا يجد ما يهتدى به في هذه البدياء المبسطة سوى النجوم إذا كان ممن يستطيعون أن يميزوا بينها. وكنت أعرف من الكتب أن هناك «دُبَّين» واحد منهما أكبر من زميله ولكنى لم أوفق إلى رؤيتهما في هذا التيه السماوى إلا منذ عهد قريب، وكان شكى يومئذ في وجودهما عظيماً، ولكنه شك لم أكن أدعه يند عن صدرى إلى لسانى ولا سيما إذا كان أحد من المدرسين حاضراً، تلك جرأة كنت قد تعلمت ضبطها وكتمانها بعد أن جرت على مالا أزال — كلما تذكرت — أرى يدي ترتفع إلى خدى. وشرح ذلك أنا كنا نطالع كتاباً نسيته اسمه، فمرت بنا هذه الجملة المشهورة: «إن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه» وأخذ المدرس يضرب الأمثال، فكبر في عيني هذا «المضطر» الذى يبلغ من مخاطرته ألا يركب إلا الصعب «ويتعمد ذلك» ولا يعبأ شيئاً بالأهوال التى يقذف بنفسه عليها، وأعجبتنى هذه الشجاعة وملأت نفسى إجلالاً له، فاشتقت أن أراه وعانيت من إلحاح هذا الشوق أشد البرح، فلم يكد المدرس يفرغ من الشرح — وكنت فى شغل عنه بتصور «المضطر» وتمثل «الصعب» الذى يركب — حتى وثبت عن الدرج كالقذيفة وقلت بلا استئذان: «أفندى!». أفندى!

^١ شارع مهده من الإمام الليث قريباً من «عين الصيرة» إلى مسجد عمرو ويمر بمدينة الفسطاط التى كشف عنها حديثاً.

فتغاضى المدرس عن مخالفتي للأصول المرعية وقال لى وعلى فمه ابتسامة الراضى عن نفسه المطمئن إلى بلوغ غايته من الإيضاح والبيان: «نعم يا عبد القادر؟». فجازيته ابتساما بابتسام ولم أكن أقل منه رضا عن نفسى وفرحا بالانفراد — دون بقية التلاميذ — بهذه الرغبة الملحة، واغتباطا بشجاعة النهوض بلا استئذان للإعراب عنها فقلت: «أين يعيش المضطر؟».

فتجهم وجهه وانزوى ما بين عينيه وطالعتنى أمارات الغضب حسبتها دلائل حيرة، فأسفت لتقدمى بهذا السؤال وإحراجى إياه به أمام التلاميذ وقلت لنفسى: إن معلمنا هذا معذور إذا جهل مكان «المضطر» واستعصى عليه الجواب، وأنى له أن يعرف — وهو رجل عادى — ذلك «المضطر» الذى لا يبالي بالصعب ويأبى إلا أن يركبه؟؟ وانتبهت من هذه المناجاة، التى يظهر أنها طالت أكثر مما ينبغى، على التلاميذ يدفعوننى وعلى المدرس يصيح بى. «أقول لك تعال هنا، ألا تسمع؟».

فلم أدع الابتسام وذهبت إليه وأنا أقول لنفسى: «سيعاتبنى الآن على تسرعى وعدم انتظارى انتهاء الدرس لأسأله على انفراد وسيهمس فى أذنى عتابه فأهمس فى أذنه اعتذارى وأنتظر».

«ماذا تقول؟» بصوت عال.

ولم يكن هذا ما توقعته فارتبكت، وحدثت نفسى أن هذا مأزق ظريف. أرجو أن أنقذ الرجل ويأبى هو إلا أن يغرق، ورفعت له وجهها يستطيع أن يقرأ فيه إذا لم يكن أعمى، أنى أسف وأنى مدرك خطئى وكان عليه أن يخفض صوته قليلاً، ولكنه لم يحفل رجائى وتوسلى فصرخ مرة أخرى: «ماذا تقول؟ أجب».

فالتفت إلى التلاميذ كالذى يريد أن يقول — أسمعون هذا المجنون؟ لست ملوماً إذن وأنتم شهودى. ولكنى لم أكد أرد وجهى إليه حتى خطر لى كوميض البرق أنه لعله لم يسمع سؤالى فهو يجهل مداه ومبلغ ما ينطوى عليه من الخطر على سمعته ومركزه بين التلاميذ. واستولى على هذا الخاطر فسررنى أن فرصة الإنقاذ لم تضع، فشبتت عن الأرض ورأيت يمناى تمتد إلى كتفه لتدنو بأذنه إلى فمى، وإِذا بى على الأرض أقيسها إلى آخر الفصل دائراً حول نفسى ومنتخذا رأسى محوراً، وقعدت أبكى وبى من الغيظ والحدق أكثر مما بى من الألم، ولكن المدرس كان قد لحق بى فكتمت الغيظ ورفعت طبقة البكاء فجأة حتى صار إعوألاً، فجعل يصيح بى. «أخرس يا كلب آخرس. أقول لك آخرس».

ويشفع كل كلمة بلطمة أو لكمة فأزداد إغوالاً.

ويظهر أن هذا الصخب نبه «الناظر» — وكانت غرفته قريبة منا — فدخل علينا ورأى المدرس متلبساً بجريمة الضرب — وهى محرمة — وكان الناظر رجلاً طيباً ساذجاً يخرج الكلام من أنفه أحن أغن ممطوطاً ليناً، وكان صديقاً لأبى — أعنى قبل موته — وحديث عهد بالكوية، وكانت لى عليه دالة بفضل تملقى «بكويته» لا بفضل صداقته لأبى — وكان التلاميذ يعرفون لى هذه الدالة فإذا أرادوا شيئاً بعثوا بى إليه. أوفدوني إليه مرة.

فقلت: «يا سعادة البك. نريد أن تأذن سعادتك لنا فى الذهاب إلى حديقة الحيوانات». فاعتدل فى مقعده وهز رأسه وهو يقول: «حونات. حونات إيه يا ابنى. أسد فك السلاسل نهش عيل منكم نبقى نقول يا مين؟؟ يا ابنى يا عبد القادر لا».

فاقتنعت واقتنع التلاميذ بأن الذهاب إلى حديقة الحيوانات خطر ليس بعده خطر. ولا أذكر أنى دخلتها إلا بعد أن صرت مدرساً فى المدرسة السعيدية الثانوية وعلى مقربة منها، وإلا بعد أن تحققت أن الأسود تحبس فى أقفاص ولا تربط بالسلاسل — إن صح أنها كانت تربط — كما كان الحال على عهد ناظرنا طيب القلب..

وأعود إلى «المضطر» وقصتى معه فأقول بإيجاز: إن المدرس — على الرغم من اعتدائه على وعلى القانون ممثلاً فى شخصى المحطم المجرح — زعم أنى هممت بصفعه. يا للكذب! وأصر على وجوب طردى من المدرسة. ولم تجد دموعى ولا ما أقسمت من الأيمان على أنى لم أرتكب هذه الجريمة التى لم تخطر لى على بال قط، وأننى ما أردت إلا الاستفسار عن مكان «المضطر» لأراه، وشهد التلاميذ الملاعين أنى رفعت يدى إلى كتف المعلم، فأيقنت أنى ضائع لا محالة ويئست فكففت عن البكاء، وقلت: «أتلقى هذا الظلم بما يستحقه من الاشتمزاز والاحتقار». وجرنى الناظر معه إلى غرفته وشرع يسألنى فى هدوء وعطف فسردت عليه القصة على حقيقتها ورأيت فرصتى سانحة فاغتنمتها وأكثر من «سعادة البك» وأضفت من عندى كذبة صغيرة فزعمت أن المعلم شتم أبى، وأبى — كما يعلم سعادة البك الناظر — ميت. وفعل التملق والأكذوبة فعلهما الذى توقعت فنهض سعادة البك وقال لى بصوت خفيض: «اسمع يا ابنى أطردك من باب تيجى من باب. فاهم؟».

قلت: «نعم يا سعادة البك» فتركنى وخرج وأسر شيئاً إلى فراش بينما كنت أوثب فى الغرفة وأطوى يدى ورجلى فى الهواء من فرط الفرح، ثم نادانى فخرجت وبعد قليل

حضر المدرس أيضًا فمضى بنا جميعًا إلى الباب الكبير — وكان هناك باب آخر — وقال: «يا عم محمد. افتح البوابة. أخرج من مدرستي. امشى من هنا. مبسوط بقى يا عم الشيخ...؟» هذا للمدرس.

ولا يحتاج القارئ أن أقول له أنى درت ودخلت المدرسة من الباب الثانى وأن المدرس وجدنى جالساً على درجى فى اليوم التالى ولكن القارئ قد ينقصه أن يعلم أن المدرس عاد إلى الشكوى فقال له الناظر: «وماذا أعمل إذا كان هؤلاء الأولاد كالعفاريت ربما كان قد هبط إلى فناء المدرسة من فوق سطوح الجيران».

والآن إلى اللصوص بعد هذا الاستطراء الطويل الذى دعت إليه المناسبة العارضة: مناسبة الذكرى الأليمة.

لم أزل أغرس قدمى فى الرمال وأقتلعتها — فما يسمى المشى فى هذه الصحراء مشياً إلا على المجاز — حتى دنوت من عين الصيرة،^٢ فأبصرت أشباحاً على ضوء نار، وكان الليل دامساً فلم أستطع أن أكون على يقين من مكان القوم، وخفت إن أنا مضيت فى طريقى أن أقع عليهم وأنا لا أعرف أى ناس هم، وكنت أسمع أن هذه الرقعة الجذباء من الأرض مأوى اللصوص وعش الفتاك، فقلت: أميل عن الطريق حتى أبلغ «عين الصيرة» فأنحدر إليها ثم أعود فأصعد على حذر ناشراً أذنى فى الليل المحيط مرهفاً سمعى كل صوت ونأمة عسى أن أفلت، فإذا تعذر الإفلات عدت فوسعت الدائرة. فما كاد رأسى يبلغ مستوى الطريق المشرف على (العين) إذا بالقوم تحت عيني.

فأسرعت ورددت رأسى وتواريت خلف الصخرة التى كانوا جالسين إليها من الناحية الأخرى. وجلست أفكر وقد شاع فى الرعب وكادت عيناى تخرجان. غير أنى لم ألبث أن سمعتهن يغنون ويتضاحكون فعاد إلى بعض ما عذب من الطمأنينة، وتشجعت فدنوت من حرف الصخرة وجعلت أبرز من وجهى بقدر وأخفى بقدر، فألفيتهن على بضعة أمتار — نحو عشرة، منهم الضخم الهائل الأنحاء والطويل الهزيل والقصير والبدين، وكان أحدهم يغنى والباقيون يصخبون حوله ويضحكون ويتندرون عليه ويركبنه بالذع أنواع المجون. ويظهر أن هذا استفزه وأحنقه فانتفض عن الأرض ومضى يلعنهم ويقذفهم بأقبح النعوت، فهموا به جميعاً ولكن رجلاً ضخماً من بينهم حسبته فيلاً صغيراً صدهم وأهاب بهم أن (دعوه لى فإنه طعمامى الليلة).

^٢ عين متفجرة بماء أسود يستحم فيها مرضى الجلود.

فسرت رعدة خفيفة في بدنى ومططت وجهى لعلى أرى ذيله وراءه. وتناول الرجل عصا غليظة تبلغ المترين أو قراب ذلك وجعل يتوثب في الهواء ويلوح بها في كل ناحية ويهوى بها على الرؤوس حتى إذا كاد يطيرها عن أكتافها أو يحطمها حرك يده فمرت العصا فوقهم تقطع الهواء وتقول: (فووو) والرجل يقول في أثناء ذلك كلاما كهذا — دعوه لى. إنه طعمى! ألا تروننى؟ انظروا إلى وراعونى إنى أنا الذى يسمونه الموت الوحى والخراب العاجل! أمى العاصفة وأبى الزلزال وأختى الكوليرا انظروا إلى وراعونى. إنى أفطر بقافلة وبرميل من البلح،^٢ وإذا مرضت كان حسبى ملء سلة من الأفاعى. أفقت الصخر بنظرة وأخرس الرعد بصيحة. وسعوا لى وسعوا لى. الدماء شرابى وأنين القتلى موسيقاى. انظروا إلى وراعونى وعلقوا أنفاسكم فإنى موشك أن أنطلق».

فعلقت أنا أنفاسى وقد ملأ الرعب والإعجاب والسرور قلبى — الرعب مما سمعت ورأيت، والإعجاب بقوته وحذقه، والسرور بما أنا موشك أن أراه بين المتنازلين، وحدثت نفسى أنى سأشهد منظراً لن أنساه ما حييت، منظراً ينطوى — من دواعى الإعجاب والإجلال — على أعظم وأهول مما ينطوى عليه ركوب ذلك (المضطر) للصعب من الأمور.

ثم نهض الذى كان يغنى وكانوا يسخرون منه، وفي يده (نبوته) لا كما ننهض نحن أبناء آدم، بل كما يطير النسر عن الصخرة، وهوى على نبوته قائما على الأرض وهو معتمد عليه ببطنه وناشر يديه ورجليه في الفضاء طلبا للاتزان، ثم وثب بين صيحات الإعجاب وانطلق يضرب في الهواء بنبوته كما صنع زميله، ويقول كلاما كهذا: «احنوا ظهوركم لركوبى ولا تنظروا إلى بعيونكم فتذهلوا، إنى أحك جلد رأسى بالبرق، وأنيم نفسى بالرعد، وأروح على وجهى بالعواصف، وإذا ظمئت مصصت السحاب وإذا جعت سار القحط في ركابى. واتقوا أن تنظروا إلى فتبهتوا!! إنى أحجب الشمس بكفى وأقد من القمر قطعة فينتهى الشهر، وأرتج لتندك الجبال: احنوا الظهور لأبى الخوارق!».

فصارت روحى في فمى. ونهض الأول وذهبا يتوثبان ويضربان الهواء بنبوتيهما ويصرخان كالشيطان ويتسابان بأوجع الكلام حتى غلى الدم في رأسى أنا، وأيقنت أن الدماء ستكون أمامى بركة. ثم طير الأول عمامة الثانى بنبوته فقلت قد صرنا إلى الجد

^٢ شراب يسكر يصنعونه من البلح.

الرائع فالتقطها الثانى بنبوته أيضاً — وضرب عمامة الأول فأطارها عن رأسه فوقعت قريباً منى، فجرى الأول فى أثرها وتناولها وقال «لا بأس، دقة بدقة والبادى أظلم، ولكن هذا لن يكون آخر ما بيننا فخير لك أن تكون على حذر وأن تجنب طريقى فإنى لا أصفح ولا أرحم وسيأتى اليوم الذى تكفر فيه عن ذلك بدمك».

فقال الثانى — أبو الخوارق — إنه مستعد لذلك اليوم وأنه ينذر الأول من الآن، فإنه لن يستريح ولن يهدأ له بال إلا إذا خاض برجليه فى دمه، وأنه يدعه الآن إكراماً لأولاده الصغار. وهم كلاهما أن يذهب فى طريق وكانا لا يزالان يتقاذفان بالوعيد والشتائم، ولكن رجلاً قمىء الجسم — بالقياس إلى هذين الفيلين — قفز وصاح بهما: «قفا لعنة الله عليكما من جبانين، وإلا أطعمتكما هذه العصى».

ولم يكذب فقد جذب كلا منهما بذراع قوية أطعمه التراب، ثم أوسعهما ركلا برجليه حتى أشبعهما تمرىغا وضربا، ولم تمض دقائق حتى انقلبا كلبين ذليلين عند قدميه. فدوى الفضاء بضحكات الجالسين وتهكماتهم وعانيت الأمرين من كتمان الضحك.

وبدا لى أن قد آن أن أفكر فى الرجوع والهروب من هذه الحيرة ولكن أحد الذليلين — وأحسبه أبا الخوارق — قام ليغسل وجهه ويديه فى العين فرأنى، فوقف وصاح «هوا من هذا؟» ووثب الباكون فكانوا حولى فى أسرع من لمح البصر، وقبل أن أفكر فى جواب. وتصايحوا بى فقال الأول: ماذا تفعل هنا؟ قل وإلا أغرقناك فى العين.

وقال الآخر: شدوا رجليه ومزقوه!

وقال ثالث: لص بطربوش! ها ها! تعال نعلمك: هاتوا الفرشاه لندهن له وجهه باللون الأزرق السماوى من فرعه إلى قدمه.

فضحكوا جميعاً وقالوا: «فكرة بديعة» غير أن الرجل القمىء الذى مرغ الفيلين فى التراب صدهم جميعاً وقال: إنه ليس إلا طفلاً؟ ارفعوا عنه أيديكم! ويمينا لأدفن من يلმسه.

فوضع أحدهم الجردل وترك الفرشاة تهوى إلى الأرض وتتغفر بترابها وقال المنقذ: تعال إلى النور لنرى ماذا جاء بك إلى هنا، اقعد! كم لك هنا؟ قلت: «دقيقة واحدة».

قال: «ما اسمك؟»

ولا أدري لماذا لم أقل اسمى ولا لماذا أجرى لسانى بما جرى به ولكن الذى أدريه أنى قلت بلهجة الجاد «أبو الخوارق».

فانفجر القوم ضاحكين ما عدا سميّ الذي استعرت منه هذه الكناية ويظهر أن هذا راق منقذى. فقال: «هذا حسن ولم أكن أنتظره من طفل مثلك.» ولكنك يا صاحبي كذبت على حين قلت: «إنك هنا منذ دقيقة فقل الحق ولا تخف فلن يصيبك سوء». فأخبرته الحقيقة وتعمدت — وقد اطمأنت نفسي لهذا الوعد — أن ما سمعت ورأيت من الفلطين الجبانين اللذين مرغمهما منقذى فى التراب. لأن أحدهما هو الذى توعدنى بالإغراق وثانيهما هو الذى أراد أن يدهننى. وهكذا انتقمتم لنفسى وأدخلت السرور على نفس منقذى، فرافقنى إلى أول الطريق المائوس ثم أطلقنى فمضيت أعدو إلى البيت!

وكان هذا أول عهدى (برجال الليل).

الفصل السابع

أبو الهول وتمثال مختار

رأيت تمثال «مختار» كما لم يره غيري. ولست أعنى أنى دخلت في جوفه، أو صعدت إليه، وركبت أبا هوله، أو نظرت إليه بأربع عيون، ولكنما أعنى أنى لم أكد أقف أمامه وأهم بأن أرفع إليه عيني حتى أحسست طفيلياً إلى جانبي يتأبط ذراعى، كأنما كنت أعرفه قبل أن يولد، ويقول لى: إن صانعه «مختار محمد مختار».. فصرفت نظري عن التمثال وانصرفت إلى هذا الذى اختار أن يكون صديقى دفعة واحدة وآثرنى على غيرى من الواقفين بصحبته وراقنى الموقف جدًّا، وقلت له وأنا أفحصه بعيني وأبحث في وجهه عبثًا عن مخايل «النشالين»:

— سبحان الله. أصحيح ما تقول؟

قال: وهل أنا أكذب عليك؟ سل من شئت من الواقفين.

قلت وقد زاد اغتباطى بالموقف: أستغفر الله. فما أعرفك كذبت قبل اليوم.

وخطر لى أن أستخلص من هذا الموقف كل ما فيه من متعة فقلت: معذرة، ولكن

صاحبه عبد الغفار، هل ...

فقال بلهجة من يريد أن يدركنى لينقذنى:

— لا لا لا. مختار.. مختار محمد مختار.

— معذرة مرة أخرى — مختار — وهل هو صاحبه؟

قال: نعم.

فقلت: ومن أين اشتراه؟

قال: اشتراه! إنه هو الذى نحته.

قلت: وهل كان هنا جبل نحته منه؟

فضحك ملء شذقيه ثم قال: جبل؟ أى جبل؟ ألسنت من أهل القاهرة؟

قلت: كلا إني من الريف. وهذا أول يوم لى فى القاهرة.
فزال عجبته ولم يسرنى أن أراه يضحك منى أنا الذى يريد أن يضحك منه، غير أنه لم يسعنى أن أترجع بعد أن ذهبت معه إلى هذا المدى، ورددت الحديث إلى مختار فسألته: وهل مختار هذا من قدماء المصريين؟ أقول هل — معذرة إذا كنت غلطت فى اسمه مرة أخرى — ولكن هل هو — أعنى صاحب التمثال — من قدماء المصريين؟ فافتتر فمه عن ابتسامة عطف على كتلة الجهل المجسد الذى كان يتأبطه واستل ذراعه، فحمدت الله ووقف أمامى يتأملنى وقد شك فى أمرى على ما أظن، وتوقعت أنا أن أنفجر بالضحك المكتوم فيحدث بيننا ما لا تحمد — أو ما لا أحمد أنا على الأقل — عقباه.

فأشرت إلى اسم التمثال المكتوب بالخط الكوفى على القاعدة وسألته: ما هذا؟
قال: ألا تستطيع أن تقرأ؟
قلت: أقرأ! وهل هذه كتابة؟

قال: نعم، وماذا كنت تظنها؟ إنها اسم التمثال — نهضة مصر.
قلت — وتجهمت له — اسمع يا صاحبى. لا يليق بك أن تغشنى.
فراح يقسم بالله أن الأمر كما يقول وينطق الاسم وهو يشير إلى الحروف بإصبعه. فقلت: وهل هذا خط عبد الغفار.. لا لا.. مختار. أليس كذلك؟ إن خطه قبيح جداً. إن أبلد تلميذ فى بلدتنا يكتب خيراً من هذا الخط ألف مرة.
وأحسبنى حيرته وأدرت له رأسه بهذه الملاحظة فقد تلعثم، وسرنى جداً أن أشهد ارتباكته، وأقسمت لأمطره وابلا من هذه المدهشات، فلم أمهله ريثما يفكر فى جواب بل رميته بسؤال آخر عن المصرية الواقعة إلى جانب أبى الهول: وهل تعرف هذه السيدة؟ فرفع رأسه بسرعة وقال بلهفة: نعم. لا. إنها من التمثال.
فقلت: شئ جميل والله. وهل هذه أول مرة تقف فيها هذه السيدة هنا؟ فحملق فى وجهى ولم يفهم وضاعت النكتة، واحتجت إلى سؤال آخر فقلت: وهل ستظل هذه السيدة واقفة هنا؟

ففتح الله عليه بهذا: يا أذى هذه ليست سيدة. إنها حجر. تمثال. ألا تفهم؟
فقلت: فهمت. فهمت ولكن أنظل هكذا؟ ألا تتعب؟
فقال — ودق كفاً بكف: كيف تتعب؟ ألم أقل لك إنها حجر؟
قلت: آه صحيح. وأى حيوان هذا الذى جانبها؟

قال: حيوان؟ هذا أبو الهول ينهض.

قلت: وهل كان راقداً قبل الآن؟

فخيل إلى أنه سيدعنى ويجرى، ولكنى كنت واهما فقد ثبت وكان أشجع وأجلد مما ظننته وقال بصوت خفيض — وفى تودة: اسمع. ألم أقل لك: إن اسم التمثال نهضة مصر؟ أجبنى.

قاطعته وأجبهته أن نعم.

فقال: فهذا أبو الهول ينهض. يعنى أن مصر تنهض. أفهمت الآن؟

قلت: بودى أن أكون فهمت حتى لا أتعبك. ولكن أين مصر هنا؟

قال: أبو الهول يا أخى.

قلت: ومن هذه السيدة الواقفة بجانبه؟

قال: مصر.

قلت: هل هما مصران؟

قال: سبحان الله العظيم. لا يا أخى.

قلت: لا تؤاخذنى. ولكنك أفهمتني أن أبا الهول هو مصر وأن السيدة هى مصر وقد تعلمت أن واحداً وواحداً اثنان.

قال: لا لا. إن هذا ليس حساباً. إن هذه مصر تنهض أبا الهول. قلت: أليس معنى ذلك أن مصر تنهض مصر؟

قال: لقد بدأت تفهم. هذا هو المعنى.

قلت: ولكنى — ولا مؤاخذه — لم أفهم.

قال — وهو مغيب — كيف لم تفهم؟

وبدا لى أن فى حديثنا من الجد أكثر من المقدار الذى يحتمله هو، فعدت إلى التباله وسألته: ولكنى لا أرى الهرم هنا فهل نقله مختار؟

قال: نقله كيف؟ أين أنت من الهرم؟

قلت: هكذا قرأت فى الكتب أن الهرم إلى جانبه أبو الهول فأين ذهب الهرم؟

ويظهر أن نقل الهرم كان أكثر مما يطيق. فلوح بيده فى وجهى، وتمتم شيئاً لم أفهمه لأننى شغلت بنظارتى التى هوت إلى الأرض وتكسرت عدستها وأولانى ظهره ومضى.

بعد هذا الحديث الذى استطبت به والذى شغلنى عن التمثال وعن الوقوف به أتدبره كما ينبغي، مضيت إلى أهرام الفراغة، فلما سرت عند أبى الهول وددت لو أن صاحبنا معى. إذن لسأله من صنع هذا؟ أهو مختار أيضًا؟ وتخليته وهو يهز كتفيه أمامى — تحت أنفى — ويقول: لا يا أخى. الفراغة. فأعود أسأله: وهل هم أحياء؟

فيستعيز بالله من هذا الجهل المطبق ويقول: أحياء كيف؟ لقد ماتوا منذ آلاف من السنين.

فأبدى له العجب من أن يكونوا أمواتًا كل هذه الآلاف من السنين أسأله: وبأى شىء ماتوا؟

فيقول: لا أدرى. لا يدري أحد.

فأكر عليه بقولى: أتظن أنهم ماتوا بالطاعون؟

فيقول: لا أدرى. ربما. من يدري؟

فألح عليه وأقول: أترجح أنهم ماتوا بالكوليرا؟

فيقول بلهجة السأمان — ربما، ربما؛ قلت لك لا أدرى.

فلا أدعه ولا أرحمه وأقول: أو لعلهم ماتوا حسرة؟

فيقول — وقد انتفخت مساحره من فرط الضجر — ربما، قلت لك ألف مرة لا

أدري، ماتوا والسلام.

فأزداد عليه شدة وأسأله: وأبناء الفراغة ألا يزالون أحياء؟

فينقذنى بلفظة (مستحيل) ويعض حروفها بأسنانه، فلا يردعنى هذا وأسأله عن

أبى الهول وأين القاعدة وأين أبو الهول؟

فيعود إلى كفيه يدق إحداهما بالأخرى، وبعد أن يقضى مأربه ويرفه عن نفسه

يبينهما لى فأقول: «ما أوقره، وأشد سكونه — وهل هو ... هل هو ميت؟»

فهييج برهة ثم يبين لى أنه حجر، أو لا يستطيع معى صبرًا فيلوح بذراعه ويمضى

عنى.

كلا، تمثال مختار — «محمود» مختار — على براعته لا شىء حين يقيسه المرء إلى

أبى الهول الفرعونى، فإنه على هذا الوجه من الكآبة والجد والتشوف والصبر والجلال

والنبل، ما ليس له شبه فى وجه الإنسان — وهو حجر ولكنه فيما يبدو للعين يفكر،

ينظر إلى الدنيا حوله ولكن نظرتة تتخطاها إلى الفراغ الذى يلفها فى طياته، وتتطلع

إليه فيخيل إليك أنه يرد عينه إلى الماضي متجاوزًا مخطط الزمن وأمواج أجياله وقرونه، أو متراجعًا بها ومطبقًا بعضها على بعض، حتى تعود وقد امتزجت وأضت مدًا واحدًا عند أفق القدم — نعم يفكر أبو الهول هذا في الحروب التي دارت أرحاؤها في الأزمنة الغابرة، وفي الدول التي شهد قيامها وسقوطها، وفي الأجيال التي رأى مولدها وراقب نهضتها ولاحظ فناءها، وفي المسرات والأحزان والحياة والموت والرفعة والذلة التي دارت بها أربعة آلاف من السنين البطء.

ودع ما أرادوا أن يرمزوا له به، إن كانوا قد قصدوا إلى شيء من ذلك، فما أراه أنا إلا تجسيدًا لتلك الملكة الإنسانية التي يسمونها «الذاكرة» في صورة بارزة محسوسة، وما من أحد عرف أى شعور تحركه في النفس ذكرى الأيام السوالف، وماذا ترسم على الوجه، إلا وهو يستطيع أن يقرأ ذلك كله في هاتين العينين اللتين يديرهما أبو الهول فيما عرفه وشهده قبل أن يولد التاريخ.

وهو لا يقيس الزمن بالسنين، فإنها هنيهات، ولا بالأجيال فإنها لحظات، وإنما يقيسه بالدول التي قامت ثم تقوضت تحت عينه التي لا تتعب ولا تشبع من النظر، ذلك أن فيه معنى من معاني الخلود، فقد رأى منف وطيبة وشاهد مجدهما، وعاش ليبصر الخراب يعفى عليهما ويوكل بهما اليوم والوطايط، ورأى أبناء إسرائيل يقومون ثم يسحقون، والأغارقة ينهضون ثم يموتون، ورومية تشاد ويرتمى ظلها على الأرض ثم تفنى، والعرب يستفيضون في الدنيا أسرع من العاصفة ثم يذهبون في سبيل من غير. وكما أخذت عينه عظام مئات من الدولات كذلك ستأخذ قبور مئات أخرى قبل أن يفتر لحظها وتطبق الجفون.

والمرء ينظر إلى أبى الهول الساهد ويفكر في آلاف السنين التي قضاها هنا على حافة الصحراء، فلا يستغرب ولا يخالجه شيء من الشعور بالتنافي بين هذه الدهور الطويلة وبين مقامه هذا، وذلك أن ربهضته تشيع في النفس معنى الاستقرار التام. وقد أحسن القدماء بإيثار الربوض له، فإنه جلسة مريحة تقتزن في الذهن بمعنى الاستمرار، وليس كذلك «النهوض» كما هو مصور في تمثال مختار، والمرء خليق حين يعود إليه مرة بعد أخرى أن يحس أن لهذا الوضع ما بعده، إما أن يثب إلى الأرض، وإما أن يعود إلى الجثوم والراحة والسهوم مرة أخرى، أما البقاء هكذا يوما بعد يوم. وشهرا في إثر شهر، وعاما في عقب عام، فليس من السهل على العقل أن يأنس إليه ويقتنع به، وقد تكون هذه مزية للتمثال، وعسى أن يكون المقصود بها أنها نبوءة أو

أمل أو نحو ذلك. ولست أعيب أو أنقد، فما أعنى أكثر من أنى حين أنظر إلى التمثال لا أحس أنى قد رأيت كل شيء، وقد أتوهم أنه سيثب عن القاعدة إلى الأرض.

وهذا الذى عليه أبو الهول الجديد إقعاء لا نهوض، فإن الحيوان — من البعير إلى الهرة — حين يريد أن ينهض، يقوم على رجليه الخلفيتين أولاً ثم الأماميتين، أما القيام على رجليه الأماميتين، فحسب فهذا هو الإقعاء، وهو جلسة للحيوان يتخذها أحياناً، وأكثر ما يراه الإنسان فى الكلاب، حين تقعد ناشرة آذانها راصدة عيونها، وأحسب أن مختاراً إنما أثر هذا الوضع، لأن منظر أبى الهول يكون غريباً ثقيلاً إذا أنهضته على رجليه الخلفيتين، كما ينبغى أن يفعل إذا كان يقصد إلى النهوض، ولعل عذر مختار أن أبا الهول هذا خليط من الإنس والحيوان فله أن ينهض كيف يشاء حتى على رأسه. وهذه الفتاة المنصوبة إلى جانب أبى الهول لا أفهم معناها ولا أدرى لماذا يقيمها المثال هناك ويضنيها بهذه الوقفة المتعبة؟ ولو كنت أنا مختاراً لاستغنيت عنها جملة ولاجتزأت بأبى الهول وحده. لأنه إذا كان المراد الرمز إلى أن مصر تنهض، فإن أبا الهول بمفرده حسب من شاء أن يرمز إلى ذاك. ولن يركب لجهل أحد فيتوهم أن المراد به رومية أو قرطاجنة، ففي نهوضه وحده ما يكفى رمزا لنهوض البلاد التى اقترن اسمه بتاريخها. زد على ذلك أن قيام الفتاة إلى جانبه تخليط؛ وذلك أنها — على ما فهمت — رمز لمصر الحديثة. وعلى هذا يكون أبو الهول عنواناً على مصر القديمة، وكان المعنى — على هذا — أن مصر الحديثة توقظ مصر القديمة، أو أن مصر القديمة تنهض إلى جانب الحديثة وفى كنفها، وكلا المعنيين مستحيل يرفضه العقل ولا يسيغ معناه، وأصح من ذلك أن هناك — أو هنا على الأصح — مصرًا واحدة تاريخها سلسلة متصلة الحلقات، وأنها كانت نائمة أو متفترية أو ما شئت غير ذلك، ثم هى الآن تستيقظ أو تنفض عنها غبار القرون وتهم بالنهوض، وهو معنى لا يحتاج إلى هذه الفتاة التى تفسده ولا تؤيده.

ولست أستريح إلى وقفة الفتاة فإنها كالعصا، ويمناها التى على رأس أبى الهول غريبة فى وضعها؛ فإنها لا يسندها فى الحقيقة إذا تأملتها إلا أصابعها، أما ذراعها فكالملق فى الهواء إن كانت الشملة — أو لا أدرى ماذا هى — تحجب هذا التعليق عن عين الناظر، وهى لا تفعل بيمينها هذه أكثر من هذا الاستناد بأطراف الأصابع دون باطن الراح، ولا أدرى لماذا جعلها كذلك ولم يدعها تريح ذراعها؟ ثم ما معنى هذا الوضع؟ وما الذى قصد به إليه؟ أترأه أراد الإيقاظ؟ فهذه ليست حركة إيقاظ، وليس

فى وجه الفتاة أدنى التفات إلى الذى بجانبها إن صح أنها تريد أن توقظه. أم ترى المراد أن مصر الجديدة تحسر عن وجهها وتبرز للعالم معتمدة على مصر القديمة، فإن كان هذا هو المقصود وأحرى به أن يكون؛ فإن رمز النهوض واليقظة هو الفتاة لا أبو الهول، ولا داعى إذن لإقامة أبى الهول على رجليه ما دام أن الناهضة سواه، وأنه ليس إلا تكأة ووسيلة للرمز إلى الاتصال بالماضى، وحينئذ يكون المعنى أتم وأقوم بأن يظل أبو الهول هذا رابضاً على العهد به والفتاة حاسرة على جانبه.

والخلاصة أن التمثال كان حقيقاً أن يكون أوفى بالغرض فيما أرى لو أن أبا الهول ظل رابضاً إلى جانب الفتاة المعتمدة عليه إشارة إلى اتكاء مصر الحديثة على ماضيها واعتزازها به واستيحائها إياه، أو لو أن التمثال خلا من الفتاة. والأولى عندى أفضل اجتناباً للإقعاء، وتفادياً من الوقوع فى هذه الغلط. أما التمثال فى شكله الحالى فلا أكتفم القراء أنى أحس كأنى أحمله وقاعدته على ظهرى. ولا يسوء مختاراً قولى هذا فإنه يعلم أنى من أجهل الناس بالفنون، وأن ليس لى من الوسائل المعينة على حسن التقدير سوى رأس واحد وعينين اثنتين ليس إلا.

الفصل الثامن

الحب الأول

كنت صغيراً لم أدخل — بعد — في حدود الشباب، وكان الوقت صيفاً، وأكثر ما أقضى النهار أمام البيت ألعب الصبية من لداتي، فمرة نكون قطاراً بخارياً مؤلفاً من بضع عشرة قاطرة — ليس بينها مركبة واحدة — ننفخ جميعاً ونقول: «أومف أومف بفو بفو» وأخرى نكون خيلاً تسهل وتتوثب وتضرب الأرض بحوافرها وتزعج المارة وتصطدم بهم، وطورا نتقاذف بالكرة ونحطم بها زجاج النوافذ فيثور السكان ويجلوننا عن الحارة، وتارة نقسم أنفسنا فريقين، عصابة من اللصوص وضباطاً، وأحياناً نعصب لواحد منا عينيه ونتوارى عنه وينطلق هو وراءنا باحثاً فمن لقي منا عصبنا له عينيه بدلا منه، وهكذا إلى آخر هذه الألعاب الصبائية إن كان لها آخر يعرف أو حد تقف عنده ولا تعدوه. وكنت أنا — بفضل الله — أحمقهم جميعا وأشرسهم خلقا وأسرعهم إلى الشجار، وكنت إذا ضاربني أحد لا أبالي أين وقعت يدي، ولا أتقى أن أصيب عينه أو أنفه أو أسنانه، وقد أتناول الحفنة من التراب وأعفر به وجهه وأرده كالأعمى، ثم أنهال عليه لطما ولكما وركلاً. فقد كنت واسع الحيلة كما ترى فعوضني ذلك من ضعفي، وصارت لي بفضلته منزلة بين هؤلاء الصبيان. وكانت لي جارة — فتاة صغيرة كالنرجسة في مثل سني — وكنت أكثر ما أراها مطلة من النافذة علينا أو واقفة إلى بابها تنظر إلينا ولا تشترك معنا، ولا أستطيع أن أصفها، فقد بهتت صورتها بعد كل هذه السنين الطويلة، وإن كنت لا أزال أرى لها نوبة في القلب وعلوقا بالفؤاد كلما كرت بي الذاكرة إلى تلك الأيام، وكانت لا تفتأ تنكر مني طيشي ومغامراتي. رأيتني مرة مقبلاً على البيت بعد الغروب بقليل، وعلى جلبابي الأبيض طوائف شتى من الأوحال فاستوقفتني وسألتني: «ما هذا؟ ماذا أصابك؟».

قلت: اعترضتني حفرة واسعة فأردت أن أعبرها وثبًا فقصر الوثب عن الغاية فكان ما ترين.

قالت: لو فكرت قبل أن تثب لعلمت أنك لا تستطيع أن تعبر الحفرة.

قلت: ولكنني عبرتها.

قالت: كلا! لم تعبرها بل وقعت فيها وهذه ثيابك تشهد عليك.

قلت: ولكنني اجتزتها والسلام. ألا تريينني أمامك؟

قالت: عنيد ولا خير في الكلام معك.

وتركتني.

واتفق بعد شهور من ذلك أن لقيتها عائدة إلى بيتها وكنا على مسافة مائتي متر منه، فلما صرنا في «الحارة» إذا هي زحلوقة لا تثبت فيها القدم من كثرة الماء المرشوش، ولم يكن ثم طريق آخر، فأسندت يدها على الحائط وناولتني يدها الأخرى، وقلما كنت ألمس يدها. فلما صارت كفها في كفى شعرت بشيء من الزهو ممزوج بالغبطة، وخفت على يدها اللينة البضة أن تؤذيها قبضتي — التي خيل إلى أنها قوية — فجعلت أصابعي حول رسغها حيث العظام فيما بدا لي أقوى على الاحتمال، وجعلت أخطو بحذر مخافة أن يطير إلى ثوبها التنظيف رشاش من الماء القذر، وكانت مضطرة أن تعتمد على بجسمها، وتلك أول مرة دنت مني أو دنوت منها إلى هذا الحد، وكان شعرها محلولا ومرسلا من فوق كتفها على صدرها، فجعلت أدنى أنفى منه وأشمه، ولم يكن معطرا ولكنني كنت أجد له ريحا طيبة، فلحظت ذلك مني وسألتني وقد جذبت يدها قليلا: «ما هذا الذي تفعله؟».

قلت: إنني أشمك.

قالت: تشمني! إنك أوقح من رأيت من غلمان حارتنا.

قلت: لست أقصد أن أكون وقحا ولكن لشعرك رائحة طيبة فهل من بأس أن

أشمه؟

قالت: كلا لا تفعل.

قلت: لقد فعلت وانتهى الأمر.

وبعد قليل قلت: «هل تعلمين أن على وجهك وشعرك سبعة — ثمانية نجوم؟».

فابتسمت ولم ترد، فقلت ومددت إصبعي وأشارت به: «حقيقة. نجمان على شعرك،

هنا وهنا، ونجم على جبينك هنا — ثلاثة — ونجم في كل عين — خمسة — ونجم على

طرف أنفك — ستة — واثنان على فمك هنا وهنا — ثمانية نجوم — ليت معك مرآة! إذن لأريتك!.

فضحكت، وكنا قد صرنا على الأرض الناشفة فعدنا إلى وسط الطريق وصرنا، ولكن يدها بقيت في يدي، حتى بلغنا بيتها فشكرتني ودخلت.

ومنذ ذلك اليوم صار لهذه الفتاة تأثير في نفسي، لا أعرف له مشبها، ولم يخطر لي قط أنه راجع إلى أية عاطفة خارجة عن حياتي العادية، فكنت كلما رأيته أشعر بشيء من الدهشة وتعاودني الحنين إلى شمها — أعنى شم شعرها.

ولقد عرفت بعد ذلك فتيات كثيرات أجمل منها أو أفتن، ولكن أخطأت فيهن جميعاً ذلك العبق الذي كانت تستريح إليه حواسي، والذي كان يفتّر له جسمي، كانت تغيب عني أسبوعاً وأسابيع فأنساها، وإن كنت أحياناً أرى صورتها ماثلة في ذهني وفي أحلامي، وصرت أحب أن أراها وهي لا تراني؛ لأنني إليها مطمئناً وأرى شفيتها الدقيقتين تفران عن ابتسامة خفيفة، وأشتاق أن أساعدها وأحميها كما ساعدتها يوم تخطيت بها تلك الأرض المبللة، وأن أسمعها تشكرني كما شكرتني يومئذ.

وقلت على الأيام ملاعبتي للصبيان، وكثرت وقفاتي معها على بابها، ثم غابت أسابيع في قرية فيها بعض أقاربها، فشعرت بوحشة لا عهد لي بمثلها، وثقلت الحياة على كاهل صبري، فذهبت أنا أيضاً إلى أقاربي وقضيت عندهم شهراً كان من أطيب ما مر بي وأحلى وأندى. ثم عدت ولقيتها مساء يوم على باب دارها كعادتها، وكانت مطرقة وفي يدها عود من ثمر الحناء تقطع بيسراها أكمامه التي لم تنور، وتفركها بأصابعها وتدعها تسقط على الأرض، فدنوت منها وهي لا تحسني ووقفت برهة، ثم قلت بصوت خفيض مرتعش: «فيم تفكرين؟».

فلم ترفع عينها ولم تولني نظرة واحدة، وقالت وهي مطرقة وأصابعها لا تزال تعبت بما في يدها: «فيم أفكر؟ في مثل هذا — في النور الأصفر تحت أكمامه الخضر، في سحائب التراب على الطريق، في الأغصان الصغيرة الخضراء النابتة على فروع الشجر، في الأطيار تلقط القش وخيوط الصوف التي ألقياها لها لتحملها بمناقيرها وتصنع منها أعشاشها، في ألوان الفجر على الأشجار والحقول الندية الملتمة، في الأمساء الصافية الحالية بالنجوم المرتعشة في الغدران يترقرق فيها الماء حول قدمي المدلاتين». ثم رفعت وجهها إلى وقالت: «في هذا أفكر».

وكانت تتكلم بصوت متئد متزن النبرات كأنما تحدث نفسها فدهشت، لا بل بهت، ووقفت صامتة كأنما أستل لسانى من حلقي، وظللنا كذلك لا أدرى كم، ثم قالت: «والآن سأدخل».

ولكنها كانت بالذى يهم بالدخول أشبه، فوجد لسانى الكلام وقلت: «لا تذهبي هكذا بغير تحية أو سلام».

فوقفت مكانها وأمالت ووضعت يدها في خصرها كأن هنا شيئاً يؤلمها فدنوت منها فإذا بلمعة عينيها تنطفئ ووميضها يخبو، فقلت: «ماذا كنت تقولين؟». فلم تجبني ومدت يدها إلى بثمر الحناء فقلت: «هذا حسن. تحية طيبة. سأذكرك بها دائماً. والآن ماذا كنت تقولين؟ أثم شيء يحزنك؟». قالت: «أى شيء يحزننى؟ لا شيء».

قلت: «إنى أرى هذا في عينيك، في ووميضهما ثم انطفأ هذا اللمعان». قالت وعلى ثغرها الدقيق طيف ابتسامة: «ماذا ترى في عيني؟» قلت: وكأننى ألهمت الألفاظ «أرى كأنك كنت تنتظرين شيئاً ثم لم يحدث». فقالت: «فقط؟ لا أكثر؟».

قلت: «فقط. وأريد أن أعرف ما هو؟ ولماذا؟». فأطلقت ضحكة صغيرة فضية النبرات، وبدا عليها شيء من السرور وفتحت ذراعيها وقالت: «كلا لعل قلبى أطل من عيني هنيهة كما يطل الطفل من النافذة ثم عاد إلى مكانه..».

فابتسمت وقد زدت بها إعجاباً وقلت: «وماذا أراد قلبك أن يرى من نافذة عينيك؟». قالت: «ألا تطل أحيانا من النافذة فتبصر طفلاً يعدو وهو مسرور؟». قلت: «نعم».

قالت: «كذلك القلب أحيانا يجرى أمام العين فرحاً مسروراً، أظن قلبى فعل ذلك حين رأيت عيني تلمعان».

ثم بعد ثانية أو اثنتين: «والآن دعنى أدخل، إن معك هذه الزهرة فاحفظها». ومضت عنى وتركتنى واقفاً كالأبله لا أكاد أفقه من كل ما قالت شيئاً وإن كنت قد وعيته كما لم أع في حياتى شيئاً غيره.

ومر عام وكنا قد انتقلنا إلى بيت آخر فمررت بدارها يوماً بعد الغروب، كان الباب موارباً فرأيتها تسقى أصص الزهر في فناء البيت، فوقفت أتأملها لحظة وهى تقبل

الورد والأزاهير بعد سقيها ورشها، ثم دخلت في رفق وهمست باسمها فلم تسمع، فأعدت الهمس فانتبهت كالمدعورة.

وقالت «إبراهيم؟» وكررت ذلك.

فاقتربت منها وقالت: «نعم هل أفزعتك؟».

ووقفت. شفتاها مفترقتان، ووجهها تصبغه الحمرة من أثر المفاجأة. ولم أكن أعرف ماذا ساقنى إليها سوى أنى اشتقت أن أراها وأن أقف معها لحظة أحادثها، وقالت: «لقد كان يجب أن أفزع، فما سمعتك تدخل، لكن من الغريب أنك خطرت ببالي وأنا أسقى هذه الأصص».

فكدت أصيح لا أدري لماذا، وقالت: «أصحيح هذا؟ إنه يسرنى».

فقال: «لم أكن أفكر فيك تفكيراً يسرك (وضحكت) لقد كنت ساخطة عليك».

فضحكت مثلها وقالت: «ماذا جنى هذا الشقى يا ترى؟».

فقال: «لست ساخطة لأنك فعلت شيئاً، لقد كنا عندكم أنا ووالدتي وأختي وقضينا النهار كله تقريباً، وأنت لا أثر لك في البيت، ولا يدري أحد أين ذهبت، وفي وسعك أن تتصور ملئ بين السيدات العجائز».

فضحكت مرة أخرى وقالت: «إنى أفضل أن ألقاك هنا ويسرنى أن أجذك وحدك».

قال: «وهل كنت واثقاً أنك ستلقانى هنا؟».

قلت: «كلا».

قال: «إذن لماذا جئت الآن؟».

قلت: «لا أعلم، اشتقت أن أراك لا أدري لماذا، فجئت».

ولم أكن أكذب، فما كنت أستطيع أن أعلل الشعور الذى يدفعنى إليها، ولا جرى ببالي أن أعلله ولكنى بهذا التصريح وبالسكون الذى تلاه، شعرت أنى دنوت خطوة من الحقيقة المجهولة، أو هكذا يخيل إلى الآن، وانعقد لسانى فسكت وأعديتها فسكتت مثلى، وأحسنا كلانا فيما نظن — كأنا هناك شيئاً جديداً يخفق به الجو، شيئاً لا يناله إدراك ولا يرقى إليه العقل، غير محسوس كالطيب يحمله النسيم.

ومر بخديها طيف من الحمرة ما جاء حتى ذهب ففتحت عليها عيني وأتأرتها النظر، فتراجعت خطوة وهى تقول: «ينبغى أن أدخل» فوقفت أرمقها وهى تدور لتمضى عني، ثم كأنما انشق عني سور فاندفعت إليها ووقفت إلى جانبها، وجعلت أدير لسانى فى حلقى بلا كلام وقلبى يخفق وتناولت يدها وذهبت بها إلى الباب حيث ظللنا برهة صامتين، ثم صاحت: «يدى. يدى ستحطمها».

فانتبهت وأطلقت كفها وأسفت، فقالت: بصوت عذب «دعنى أدخل بالله».

فتناولت يدها مرة أخرى وعدت أطلب أن تغفر لى إيذائى يدها، وقلت: إنى لا أستطيع أن أعود إذا لم تقل لى إنها ليست حانقة على. وكنت أحس أصابعها تتحرك فى كفى فقالت: «كيف أحقق؟ لقد نسيت. دعنى أدخل».

قلت: «وأعود مرة أخرى لأراك»؟

قالت: «نعم».

قلت: «ولا تعجلين بالدخول»؟

قالت: «كلا، دعنى الآن».

ولكنى لم أعد لا اليوم التالى ولا الأسبوع التالى ولا الشهر التالى، لسبب طبيعى جداً هو أنى لم أكد أسير إلى آخر الطريق حتى برز لى شاب من الظلام وصاح بى: «ماذا كنت تفعل هناك؟».

قلت: «أين؟».

قال: «هناك» وأوماً برأسه وبإبهامه إلى بيتها.

قلت: «كنت أزورهم».

قال: «تزورهم؟ هيه؟ تزورهم سأعلمك أن تزورهم مرة أخرى».

ودفعنى فى صدرى فانطرحت على الأرض، وقمت ألعنه وأسبه وأقبل على ودق رأسى بجميع يده فهويت إلى الأرض على ركبتى، وركلنى برجله، وذهب وهو يتوعدنى إذا فكرت فى العودة إلى هذا الطريق.

ولم أكن أعرف هذا الوحش ولا وقعت عينى عليه من قبل، ولم أفهم — إلى هذه الساعة — سر هذا العدوان. فرجعت إلى البيت بصدر موجه ورأس يكاد يكون مهشماً وعظام مرضوضة.

ولزمت الفراش أياماً وخفت بعدها أن أرجع، ثم صرت أستحى أن ألقاها مخافة أن تسألنى عن سر غيبتى، أو أن تكون قد علمت به.

وبعد شهور عدت من المدرسة يوماً فإذا هى ووالدتها فى بيتنا ففرحت وخجلت، ولما سلمت كانت يدى ترتجف، وعينى إلى الأرض، وذهبت إلى غرفتى فأدركتنى فى الصالة وقالت: «خذ» وناولتنى عوداً من ثمر الحناء فأخذته فى صمت وأدنيته من أنفى، ووقفت أشمه وأشمه وقد غاض معين الكلام وانقطع عنى مدده. فلما رأته صمتى وارتباكى قالت: «سنذهب إلى الريف».

فأنطقتنى هذه المباغثة وقلت — ستذهبين؟ وكم تظلين هناك؟

قالت: «عامًا. أتستكثر ذلك؟».

قلت: «بالطبع إنى آسف جدًا».

قالت: «ولكنك لا تزال تهرب منى».

فأغضيت عن هذه الملاحظة، وسألتها: «وماذا تنوين أن تصنعى هناك هذا العام؟».

قالت: يا له من سؤال وكيف يعينيك أن تعرف؟».

وضحكت فجلت ضحكتها صدرى ونفت مخاوى ونظرت إليها معجبًا، وأحسست بالدم يتدفق فى عروقى، وبأنفاسى تسرع، وحمل إلى النسيم الوانى طيب شعرها فمددت يدى إلى كفها، وكانت شفتاها مفترقتين وعيناها فى عينى، وصدرها يكاد يلمسنى، فألفيت نفسى أنحنى عليها وأمس شفثيها بفى، فصار وجهها كالجمرة، ولكنها لم تتحرك ولا تكلمت، ودار رأسى كالمخمور فتقهقرت خطوة، وهى واقفة كالتمثال، وما أظنها كانت تتنفس أو تفكر، فما رأيت صدرها يتحرك أو أجفانها تختلج: كلا لا شىء إلا هذا الجمر فى خديها ينبئ أنها حية.

وأفاقت ثم أصعدت زفرة كأنما كنت لطمتها ولم أقبلها، ثم هتفت بى، فأسرعت وأخذت يديها فى كفى، ثم رفعتهما وقبلتهما وقلت لها: «أغاضبة أنت؟؟ قولى إنك لست غاضبة».

فأجابتنى بهزة خفيفة لرأسها، فقلت: «لست غاضبة. أعلم ذلك، وإلا فما قبلتك، تكلمى».

فقالت همسًا: «دعنى أذهب إنى خائفة».

فقلت: «إنك جميلة. جميلة» وانهلث على يديها مرة أخرى ألثمهما ظهرًا وبطنًا ثم صحت يديها ببطء، ووضعتهما على صدرها وقالت وهى تتلعثم وترتجف: «قل لى ما هذا؟».

قلت: ووضعيت يدى على يديها فوق صدرها هذا؟ ألا تعلمين إنه الحب؟».

فتنهدت، وأرخت يديها وتركتهما تهويان وقالت: «سأذكرك دائمًا».

قلت: «كلا هذا لا يكفى. سيحبك غيرى».

ولم تكد شفتاها تفترقان، وهمست كأنما تتنفس: «سأحبك دائمًا».

وكان هذا آخر لقاء، فقد زوجها فى الريف.

الفصل التاسع

حلاق القرية

وقعت لى هذه الحادثة فى الريف منذ سنوات عديدة، قبل أن تتغلغل المدنية إلى أنأى قراه، وكنت أنا الجانى على نفسى فيها، فقد عرض على مضيفى أن أستعمل موساه فأبيت، وقلت: ما دام للقرية حلاق فعلى به، فحذرنى مضيفى وأنذرنى ووعظنى، ولكننى ركبت رأسى وأصررت أن يجرى الحلاق. فجاء بعد ساعات يحمل ما ظننته فى أول الأمر (مخللة شعير) وسلم وقعد وشرع يحيينى ويحادثنى حتى شككت فى أمره واعتقدت أن الحلاق شخص آخر، وأن هذا الجالس أمامى ليس سوى (طلاتعه) ولما عيل صبرى سألته عن حلاق القرية، فابتسم ومشط لحيته بكفه وأنبأنى أن الحلاق (محسوبى) يعنى نفسه، فلعنته فى سرى وسألته متى ينوى أن يخلق لى لحيته؟ أم لابد أن يضرب بالرملة والحصى أولاً ويصحب الطالع قبل أن يباشر العمل؟ فلم يفهم وأولانى صدغا كث الشعر وقال: «هيا» فظننته أصم وصحت به (أ.. ر.. يد أن ... أ.. ح.. ل ق) فسرره صياحى جداً، وضحك كثيراً، وأقبل على (مخللاته) فأخرج منها مقصاً كبيراً جداً، فدنوت من أذنه وسألته هل فى القرية فيل؟

فقال: فيل؟ لماذا؟

فأشرت إلى المقص. فضحك. وقال: «هذا مقص حمير ولا مؤاخذه». فقلت «ولماذا تجيئنى بمقص الحمير؟ أحماراً ترانى؟».

ويظهر أن معاشرة الحمير بلدت إحساسه فإنه لم يعتذر لى ولا عبى بسؤالى شيئاً، ثم أخرج موسياً من طراز المقص و(مكنة) من هذا القبيل أيضاً، فعجبت له لماذا يجرى إلى بكل أدوات الحمير؟ وسألته عن ذلك فقال: إن الله مع الصابرين. وبعد أن أفرغ مخللاته كلها انتقى أصغر الأدوات، وأصغرها أكبر ما رأيت فى حياتى. ثم أقبل على وقال: «تفضل».

قلت: «ماذا تعني؟». قال: «اجلس على الأرض». قلت: «ولماذا بالله؟» قال: «ألا تريد أن تحلق؟» قلت: «ألا يمكن أن أخلق وأنا قاعد على الكرسي؟» قال: «وأنا؟» قلت في سرى: وأنت تذهب إلى جهنم ونعم المصير، وهبطت إلى الأرض كما أمر، ففتح موسياً كالمبرد، فقلت: «إن وجهي ليس حديداً يا هذا»، قال: «لا تخف إن شاء الله» ولكنى خفت بإذن الله ولا سيما حين شرع يقول: «بسم الله، الله أكبر» كأنما كنت خروفاً، ويبصق في كفه ويشحذ موسى على بطن راحته، ثم جذب رأسى، فذعرت ونفرت ووليت هارباً إلى أقصى الغرفة، فقال: «ماذا؟»

قلت: «ماذا؟ أتريد أن تحلق لى بمبرد، ومن غير صابون؟».

قال: «ماذا يخيفك؟».

قلت: «يخيفنى؟ لقد دعوتك لتحلق لى لحيتى لا لتبرد لى شعرها».

قال: «يافندى لا تخف».

ثم قرأ من الكتاب الكريم ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى﴾ إلى آخر الآية الشريفة، وأظنه أراد أن يرقينى بها فيا لها من حلاقة لا تكون إلا برقية! وأسلمت أمرى لله وعدت فقعدت أمامه فنهض على ركبتيه وتناول رأسى بين كفيه وأمال صدغى إليه ثم وضع ركبته على فخذى ولف ذراعه حول عنقى، فصار فمى مدفوناً فى صدره فصحت أو على الأصح جاهدت أريد الصياح لعل أحداً يسمعنى فينجدنى، غير أن طيات ثوبه كانت فى فمى، أما رائحة الثوب فبحسب القارئ أن يعلم أنها أفقدتنى الوعى.

ولا أطيل على القارئ. فقد أهوى الرجل بموساه على وجهى فسלخ قطعة من جلدى فردنى الألم إلى الحياة، وأتانى القوة الكافية للصراخ على الرغم من الكمامة، ووثبت أريد الباب ولكنه كان على كبر سنه أسرع منى، وما يدرينى لعله كان يتوقع ذلك، وعسى أن يكون المران قد علمه أن يكون يقظاً لأمثال هذه المحاورات، فردنى بقوة ساعده. فتشهدت وتذكرت قول المتنبى:

وإذا لم يكن من الموت بد فمّن العجز أن تموت جبناً

كلا سأسدل الستار على هذا المنظر الذى يقشعر منه جلدى على الرغم من كر السنين الطويلة. ثم جاء هذا السفاح بطشت يغرق فيه كبش، ووضعه تحت ذقنى وصب ماءه على وجهى وفى صدرى وعلى ظهرى، ليغسل الدم الزكى الذى أراقه، وأخرج

حلاق القرية

من مخلاته (منشفة) هي بممسحة الأرض أشبه، فاعتذرت وأخرجت منديل وسبقته به إلى وجهي. فهي معركة لا تزال بجلدى منها ندوب وآثار.

الفصل العاشر

سحر مجرب

لا أدري كيف أسوق للقارئ حكاية هذه التجربة بحيث لا يتوهم أنى أهزل، ولكن الذى أدريه أنه قل بين الصبيان من اتفق له ما اتفق لى من التجارب، ولو أنه قدر لى أن أكتب تاريخ حدثتى.. ولكنى هزيل الصبر، ولعل مما هو حقيق أن يعين القارئ على فهم البواعث التى تغرى حدثا فى مثل سنى يومئذ بما فعلت، أن أقول له: إنى نشأت نشأة دينية، وأعنى بذلك أن أهلى من أهل الورع والتقوى والصلاح، وأن بيتنا كان فى فنائه مصلى أو مسجد صغير عامر أبداً بالمصلين ليلا ونهاراً. والآن إلى القصة بعد هذا التمهيد الوجيز الذى لم أر منه بداً اتقاء لسوء التأويل ونفيًا لمظنة المغالاة.

عثرت فى باكورة حياتى على أوراق مخطوطة استولت على هواى واستبدت بخاطرى، وقد اعتقدت يومئذ أنها بخط جدى لأبى وإن كنت لا أذكره إلا كالحلم، فقد مات فى طفولتى ولحق به أبى، ولم أره قط يكتب ولا ثبت عندى أن هذا خطه، وكنت أكبر جدى وأجل ذكره لغير سبب سوى ما كان تلاميذه يحدثوننى به عن علمه وتبحره وتقواه، فقوى اعتقادى هذا ثققتى بما فى الأوراق وثبت يقينى فيها، وكان من عادتى أن أقضى الصيف فى الإمام حيث تقيم طائفة كبيرة من أهلى، وكان لأحدهم حمار مليح القسمات لين الخطوات، فكنت أركبه حين أشاء إلى حيث أشاء، وأبى الحظ إلا أن أعشق، وما أكثر من عشقت فى تلك السنوات الأولى من شبابى. ولقد صدق أخى «العقاد» حين قال يصفنى بعد ذلك بأعوام عدة:

أنت فى مصر دائم التمهيد	بين حب عفا وحب جديد
بين ماض لم يذبل الحسن منه	وطريق كاليانغ الألمود

أنت كالطير. ربما شالت الطير عن الأيك وهو جم الورد

ولم يكن الحظ يلقينى إلا على كل فتاة «عسيرة البذل» كما يقول الشاعر — ولا أذكر من هو — فحرت ماذا أصنع، ولم أر أن أستشير أحداً من الصبيان الذين كنت أختلط بهم؛ لأننى كنت أراهم دونى معرفة، ثم تذكرت الورقات التى كنت أعتقد أنها مما خلف جدى، فوجدت فيها (فائدتين) طرت بهما فرحاً، فأما الأولى فتقول: «من أراد الارتقاء إلى الدرجات العلا فليطهر ظاهراً وباطناً، وليصم سبعة أيام وليواظب دبر كل صلاة على هذه الأسماء — يا هادى يا خير يا متين يا علام الغيوب — ألف مرة، فإنه يكشف له عن كنز الأرض وينادى به فى ضمائر الناس، وإن أكمل ثلاثة أسابيع فى الرياضة كشف له عن ملكوت السموات والأرض بإذن الله تعالى، وأما صفتها للإخفاء فهى أن تقرأ الآية الشريفة سبعمئة وخمسين مرة، ثم تقول بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ — إلى قوله تعالى ﴿فهم لا يبصرون﴾ — ثلاثمئة وثلاث عشرة مرة، فلو اجتمع أهل السموات والأرض على يضروك لم يقدرُوا ويعمى الله أبصارهم عنك فلا يرونك، وأكثر من ذلك أن يحول الله قلوبهم إليك بالرفقة والمجد والعطف».

وكان هذا كل ما فى الورقة، فأما كنوز الأرض فلم يكن يعيننى منها يومذاك شئ، فما كان لى هوى إلا مع تلك الفتاة، أو رغبة إلا فى إلانة قلبها. وأما الكشف عن ملكوت السموات والأرض فشئ مربع خفت أن أعالجه فأصعق. وأما الاختفاء عن الأبصار فهذا ما سحرنى واستولى على لى، وتشبث به خيالى. ألسنت أستطيع إذا فزت بذلك ووفقت إليه ببركة هذه الفائدة، أن أكون أدنى شئ إلى الفتاة وأن أراها ولا ترانى وأتملى بحسنها وقربها وهى ذاهلة عنى لاتحسنى؟

ألسنت أستطيع بفضل هذا السر الجليل أن أكون حيث أشاء وأن أفعل ما بدا لى بلا تثريب؟ لا ترانى الأبصار؟ وافرحتاه؟ أى شئ أتقى بعد ذلك؟ أى شئ يصعب على؟ تالله ما أولانى بحمد الله على أن كان لى مثل هذا الجد الصالح؟

ولكن الورقة لم تذكر الآية التى لابد من تلاوتها سبعمئة وخمسين مرة، فماذا أصنع؟ حرت قليلاً ولكنى كنت فتى عملياً، فتناولت المصحف الشريف وقلبته حتى وقعت عينى على قوله تعالى ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ وأقنعت نفسى بأن كلام الله كله فى منزلة واحدة من الجلال وأن كل آية ككل

آية، وليست كلمة منه بأفضل من أخرى غيرها. وما أرى حتى الآن إلا أن منطقي كان مستقيماً وتفكيرى كان سليماً سديداً.

وأما «الفائدة» الثانية فتقول ما يأتى: «ومن أراد إقبال الناس عليه بالمحبة والهيبة والتعظيم له في قلوبهم فعليه بقراءة هذه الآية الشريفة عقب الصلاة أربعمئة وخمسين مرة ثم يتلو بعدها هذا الدعاء الجليل سبعة آلاف مرة فإنه يحصل له من الخير ما تدركه الأفهام وهى هذه «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم يا الله — ثلاثا — يا رحمن — ثلاثا — يا رحيم — ثلاثا — لا تكلنى إلى نفسى فى حفظ ما ملكتنى مما أنت أعلم به منى، وامدنى برقيقة من رقائى اسمك الحفيظ الذى حفظت به نظام الموجودات واكسنى بدرع من كفايتك وقلدى سيفاً من نصرك وحمایتك وتوجنى بتاج عزك ومهابتك وكرمك وركبنى مركب النجاة فى المحيا وبعد الممات بحق خجش ثخذ وامدنى برقيقة من رقائى اسمك القهار تدفع عنى بها من أرادنى بسوء من جميع المؤذيات وتولنى بولاية العز يخضع لى بها كل جبار عنيد وشيطان مريد يا الله يا عزيز يا جبار — ثلاثا — ألق على من زينتك ومن محبتك وكرامتك ومن حضرة ربوبيتك ما تبهر به العقول وتذل به النفوس وتخضع له الرقاب وترق له الأبصار وتبدد دونه الأفكار ويصغر له كل متكبر جبار وتسخر له كل ملك قهاريا الله يا ملك يا عزيز يا جبار — ثلاثا — يا الله يا واحد يا أحد يا قهار — ثلاثا — اللهم سخر لى جميع خلقك كما سخرت البحر لسيدنا موسى عليه السلام ولين لى قلوبهم كما لينت الحديد لداود عليه السلام فإنهم لا ينطقون إلا بإذنك، نواصيهم فى قبضتك وقلوبهم فى يدك تصرفها كيف شئت يا مقلب القلوب — ثلاثا — يا علام الغيوب — ثلاثا — أطفأت غضبهم بلا إله إلا الله استجلبت محبتهم بسيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ ﴿فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم﴾ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم». ويكون ذلك فى جوف الليل، ثم تصلى ست ركعات فإذا سلمت تقرأ الدعاء تسعمئة وخمسين مرة، وفى حال قراءتك للدعاء تصور المطلوب بين عينيك كأنك تجذبه إليك، فإذا وفيت العدد المطلوب تقرأ هذه الآيات سبعا وهى ﴿يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ ﴿لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾، ﴿وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عيني﴾ تقرأ هذه الآيات سبعا وأنت فى كل ذلك تبخر بالجاوى واللبان الذكر.

ثم طويت الورق ووضعت في جيبى وخرجت إلى السوق، وقد بدأت أشعر كأنى فوق الناس، أو كأنى أمشى في السحاب، واشترت قليلا من الجاوى واللبن والفحم، وخرجت على الفتاة وأنا عائد إلى البيت، فلما رأتنى أحمل هذه الأشياء ضحكت وقالت «أتراك صرت خادماً؟ مبروك إن شاء الله» فألقيت إليها نظرة عطف مشوبة بالكبر، وقلت ملغزاً ويدى على جيبى «أترين هذا الجبل؟؟» — وأشرت إليه — سيحمل الليل إليك صوتاً منه» ومضيت غير عابئ بضحكها وسخرها.

ولا أطيل، خلوت بقية النهار إلى نفسى حتى فرغت مما فرضت «الفائدة الأولى» ثم قمت بعد العصر بقليل وفي اعتقادى أنى قد اختفيت عن أعين الناس، وقصدت إلى حيث الحمار مقيد ففككت القيد وأسرجته وألجمته ووضعت عليه «خرجاً» فيه ما يلزمنى من مواد البخور وأعواد الثقاب والفحم وسبحة وموقدًا صغيراً وإبريقاً فيه ماء، ووضعت فوق «الخرج» فروة صغيرة لجلوسى، ثم ركبت الحمار بعد أن صار أعلى من البغل وسرت به بين المساكن إلى الجبل، وكان الناس قد ألفوا منى هذا الخروج، فلم يلتفت إلى أحد، ولكنى كنت أعجب لهم في ذلك اليوم كيف لا يدهشهم أن يروا الحمار سائراً وحده وليس عليه راكب؟ وعللت ذلك بأن السر الذى أخفانى عن أبصارهم لا بد أن يكون قد امتد إلى الحمار أيضاً فتوارى مثلى عن العيون، فجعلت أتلفت يمينا وشمالا وأضحك، واتفق أنى مررت بشيخ كليل البصر وإن كان فيما ترى العين سليم النظر ولكنى لم أكن أعرف ذلك — فحككت له أنفى بسبابتى ورحت أخرج له لسانى وأمط شفتى تحت أنفى فلما لم أجده التفت إلى صفقت من فرط الجذل، ففزع الرجل قليلا فقلت لنفسى سمع الصوت، ولم ير الشخص فحق له أن يفزع، فطغى بى الطرب ولم أعد أطيق هذه المشية الهينة، فضربت الحمار فمضى يعدو بى إلى الجبل. وهناك فى سفحه ترجلت وربطته إلى حجر على باب كهف صغير كنا — وأعنى غلمان الحى — نقيم فيه إذا حميت الشمس، وفرشت الفروة فى جوف الغار ووضعت الفحم فى الموقد وأشعلت فيه النار وتركته للريح قليلا لتضرمه، واستلقيت أنا على الأرض، وانطلقت أفكر فيما سيكون من أمر الفتاة معى بعد أن أفرغ من العمل، وجمع بى الخيال فبدا لى كأنى فى التهليل والتسبيح والدعاء فجاءنى رجل وجلس عن يمينى لم أر فى زمانى أحسن منه ولا أطيب ريحا فقلت: من أنت؟ قال: أنا الخضر جبئتك حباً فى الله عز وجل، وعندى هدية أريد أن أهديها إليك فقلت: وما هى؟ قال: هى أن تقرأ. فقاطعتة وقلت: كفى. كفى. لقد بح صوتى من القراءة فدع هذا وهات لى..

ولم يعجبني هذا، فاختصرت الحكاية وجعلت الخضر يقوم مغضبا وأنا لا أعبا شيئاً، وعدلت بالخيال إلى سواه فتصورت الفتاة تهب من النوم مذعورة تلهج باسمي ويهتف بها هاتف أن أخرجي إلى مكان كذا في سفح الجبل، فتخرج في ظلام الليل حافية عارية الرأس في ثياب النوم ولا تزال تجرى حتى تبلغ الكهف دامية القدمين من وخز الحصى والرمال، فتقف بالباب وتناديني فأدع القراءة وأصيح: من؟ فتقول: فلانة (أو لعل الأحسن أن تقول حبيبتك فلانة).

فأقول: «ماذا يجيء بك إلى هنا؟»

فتقول: «لم أطق صبراً».

بل اجعلها تقول: «رأيتك في نومي ناظرا إلى محدقا في فجذبتني عيناك ولم أزل أسير على ضوءهما حتى جئت إليك».

فأفسو عليها وأنتصف لنفسى منها وأؤدبها غير أدب الصباح حين تهكمت على وهنأتني بأن صرت خادما أقول لها: «ارجعي من حيث جئت فما بي حاجة إليك».

فتجثو على ركبتيهما وتتوسل إلى أن أدعها ولو عند قدمي ...

ولم يعجبني أن أتصورها تجثو عند قدمي، فقد كنت رقيق القلب مهذب النفس فغيرت الموقف واعتصت منه آخر فشرعت أغازلها تلميحا لا تصریحا، وأصف لها جارة دميمة الساقين ضخمة القدمين فتسألني: ماذا تعني؟

فأقول: أعني أن للساق الجميلة سحرها.

فتقول: «ولكن ماذا يعينك من ساقى هذه الفتاة؟».

فأقول: «إنها تفسد على اليوم كله حين أراها، وأخشى جداً أن تفسد لي صحتي».

فتقول: «إنك مضحك ولست أفهمك».

فأقول: «تصورى هذه الفتاة التي سلبتها الطبيعة كل مفاتن المرأة كيف يكون ألها لو أن الشهرة «المودة» كانت تقضى بأن تكون ثياب النساء قصيرة؟ كيف تجرؤ أن تبدى ساقيهما لعيون الناس؟!».

ثم أطرق برهة فتردني إليها بسؤالها عني: ماذا بي؟

فأقول: «بي هذه الطبيعة التي تأبى إلا أن تخرج إلى الدنيا مثل هذا التشويه».

فتقول: «لعل الفتاة سعيدة لاتفتن إلى عيبها».

فأقول: «سعيدة؟ أأكونين أنت سعيدة لو كنت مثلها؟».

فتسرى في بدنها رعدة خفيفة فأكر عليها بقولي: «بأى حق تمنحك الطبيعة كل ما حبتك من المفاتن وتسلب تلك المسكينة كل هذا الذى ضنت به عليها؟».

فتتهلل أسارير وجهها وتقول: «ولكن لعلها لا تكثر لذلك». فأقول جادًا: «أين الفتاة التي لا تحفل أن تكون دميمة؟ تصوّر ما لابد أن يصيبها من الألم حين تراك؟».

فترفع عينها إلى وتحقق في وجهي لتقرأ فيه المعنى الذي أرمى إليه والذي يغالطها صوتي في حقيقته وأمضى أنا في حديثي فأقول: «إن كل ما جادت به الطبيعة عليك ينقصها...» فتقاطعني وتقول: «ولكن ما ذنبي أنا حتى تحطم لى رأسى بها؟». فأقول معذّرًا: «هل ضايقتك بحديثها؟ إني آسف. ولكن هذه المناظر تستفز نفسى وتثير سخطى كأنى وحش».

فتقول: «ألا تظن أنك قد تفىء إلى السكينة والهدوء إذا تركتك وحدك؟»
فأنهض وأقول: «لا لا لا يا لها من فكرة شنيعة».
فتقول: «إنك على ما يظهر...».
فأقاطعها وأقول: «سأنسى ساقيتها ولا أفكر إلا...».

ولكنى لم أشأ أن أعترف لها حتى في الخيال ولم يرقنى هذا الحوار ما فيه من اللف والدوران، فغيرت المنظر وحولت الصحراء المحيطة بى جنة فيحاء حافلة بالشجر حالية بالزهر، وتصورت نفسى أطوف فيها باحثًا عن فتاتى، ثم إذا بى أرى ثوبها فأمضى إليها على أطراف أصابعى، فيعترضنى حاجز من النبات الكثيف الشائك فيخطر لى أن أتسلل إليها حتى أصير إلى جانبها قبل أن تشعر بى، ولكن النبات المتشابك تحيط بى أشواكه وأنا أعالج اختراقها وتسمعننى هى فتدير وجهها إلى ناحيتى فترانى، فتصبغ الحمرة وجهها — ومن عنقها إلى جبينها — ويعبث النسيم بشعرها ويطيّر على وجهها وكنتفيتها فتمسحه بكفها وترده عن جبينها، ثم تقف ويداها فى جانبى خصرها، وشفاتها مفترقتان من المفاجأة، وكأنها تحاول أن تعلق أنفاسها مخافة أن تذهب زفرة بالسرور المباغت الذى شاع فى كيانها حين رأتنى.

ثم تهمس «إبرا.....هيم».

فأصيح وأنا أعالج من أسر الأشواك: «لقد سجنت هنا».

فتقول: «لقد قلت لى: إنك لن تأتى قبل أسبوعين ثم هذا أنت».

فأقول «إذا لم تأت إلى نجدتى فلن أجدى إليك قبل عام».

فتضحك ويسرها ما أنا فيه فأصيح بها: «مهلا ريثما أتخلص».

وأحاول الخلاص فأزيد تورطاً، فتصفق وقد أمتعها منظر اعتقالى وتقول: «لن تنفذ أبداً من هنا. فارجع. ذلك خير وأسرع».

وتخزنى شوكة فأهيب بها أن تنجذنى فتضحك وتقول: «إن منظرِكَ ظريف. ليت هناك مرآة فترى نفسك فيها».

فأضحك من نفسي وأقول لها: «إنى لم أمش كل هذه المسافة ليكون منظرى مضحكًا. وما أرانى أستطيع الآن أن أحرك إصبعًا فإن الشوك يتلقانى من كل ناحية. بالله نحى هذه الشوكة عن ذقنى فإنها تكاد تقتلنى».

وترى الدم سائلا من ذقنى فيدركها العطف على، فتحنى الشوك بيديها عن وجهى وتضغطه بكفيها فيدنو وجهها منى، وتصبح عينائى فى عينيها، وأنفى قبالة أنفها، وفمها أمام فمى، ويقرأ كل منا فى عينى صاحبه من آيات الحب ما لا سبيل إلى العبارة عنه، ثم يدور رأسها، وتهيم نظرتها وتهوى على فمى بفمها، ويحط فى هذه الساعة عصيفير على غصن وينطلق يغرد.

ولما بلغت إلى هنا فيما تخيلت وبينما أنا أتذوق القبله التى صورتها مطبوعة على فمى، نهق الحمار! فانتبهت مذعورًا من حلمى اللذيذ! ومحيت الصور الفاتنة وانتسخت الخيالات الأنيفة المعجبة وردنى الصوت المنكر إلى ما جئت من أجله، فقامت متثاقلا وفرشت الفروة فى أرض الكهف وأطلقت البخور فى الموقد، وقمت إلى الصلاة، ثم شرعت فى التلاوة على نحو ما حتمت الورقة.

ولا أدرى ماذا أصابنى، ولكن الذى أدريه أنى ظللت أقرأ وأقرأ فى جوف الليل وأطلق بخور الجاوى واللبن، ثم لم أعد أعى شيئًا. ولما قمت فى الصباح كان ضوء الشمس قد غمر السهل والجبل، فخرجت من الغار وأنا لا أفهم، وأدرت عينى فى كسل وفتور ثم تذكرت الحمار، فجمد دمى فى عروقى، وأحسست العرق البارد يتصبب. أين ذهب؟ وكيف يفك القيد عن أرجله ويحل اللجام عن الصخرة؟ ولا خير فى الإطالة فقد سرقه اللصوص وأنا ملقى كالجثة فى جوف الغار، بارك الله فى جدى وفوائده..!

الفصل الحادي عشر

الفروسية

دعينا مرة — أنا وطائفة من الإخوان — إلى قضاء يومين في ضيعة أحدهم، وكانت قريبة من إحدى الضواحي فركبنا القطار إلى ... وهناك وجدنا طائفة شتى من الخيل والبالغ والحمير، فتوهمت في أول الأمر أن هناك سوقا للدواب أو معرضاً لها. ثم علمت أنها لركوبنا. فاخترت من بينها حماراً صغيراً وهممت بامتطائه، ولكن صاحب الضيعة وداعينا عز عليه أن يركب (المازنى) حماراً، وجاءنى بجواد أصيل وأقسم على لأركبته. فاستحييت أن أقول له إنى أخاف ركوبه، وإنه لا عهد لى بالخيل، ودنوت من بعض الخدم وهمست في أذنه هذا السؤال: «قل لى: كيف تركب هذا الحصان؟».

فتأملنى ملياً ثم قال وعلى فمه طيف ابتسامة: «على ذيله!».

قلت: «على ماذا؟».

وأشاح عنى بوجهه. فذهبت إلى الجواد وأدريت عينى في ذيله ثم هززت رأسى وعدت إلى الخادم أسأله: «ألا تظن يا صاحبنى أن الأحزم أن أمتطيه قريباً من العنق لأستطيع عند الحاجة أن أطوقه بذراعى؟».

فلم يزد الرجل على أن قال: «ربما» وانصرف عنى إلى سواى، وكنا جميعاً في هرج ومرج نصيح ونضحك، وكان لابد أن أفعل شيئاً فناديت مضيفنا وقلت له: «أريد سلماً». قال فى دهشة: «سلماً؟ ما حاجتك إليه؟».

قلت: «حاجتى إليه أنى أريد أن أصعد إلى ظهر هذا المجلى يا صاحبنى».

فضحك وقال: «أنا أساعدك» ودفعنى على ظهر الجواد دفعة خيل إلى أنها ستلقينى على الأرض من الناحية الأخرى.

وسرنا مسافة على مهل ثم وخز أحدنا دابته فمضت تعدو واستحث آخر مطيته، وانطلق بها وراءه، واقترب منى ثالث وأهوى على جوادى بعصا معه، فوثب الجواد

وراح يسابق الريح — أو هكذا خيل إلى — وأنا أعلو وأهبط فوقه، حتى أحسست أن أمعائى ستتقطع، وأتلمس بيدي شيئاً أمسكه وأتعلق به فيفلت من قبضتى كل ما تصل إليه، فارتमित على عنقه وطوقتها، وجعلت أنادى من حولى وأناشدهم الذمة والضمير والمروءة أن يوقفوا هذا الشيطان. وأدرك أحد إخوانى العطف على، فصاح بى «ولكن كيف نوقفه ونحن راكبون؟».

فغاضنى منه هذا البله ولم يفتنى ما فى الموقف من فكاهة على الرغم من الألم الذى أعانيه وما أتوقعه إذا ظل الجواد يركض بى، فقلت له: «يا أبله انزل واقبض على ذيل حصانى وشده».

وكان أحد الخدم قد أدركنى وأمسك باللجام ورد الجواد، فما أسرع ما انحدرت عنه، وكأنما أعجبتنى جلستى على الأرض، فأخرجت سيجارة وأشعلتها وذهبت أدخن، وجاءنى مضيفنا على أتاناه فسألنى: «أتنوى أن تقعد هنا إلى الأبد؟» فأغضيت عن سؤاله وقلت: «إن بى حاجة إلى الشعور بثبات الأرض بعد كل هذا التقلقل وتلك الزعزعة».

قال: «ولكنك لا تستطيع أن تظل جالساً هكذا. إن أمامنا سير ساعة».

قلت: «سألحق بكم إذن، أو أرجع إذا كان لابد من ركوب هذا الزلزال».

قال: «ولكن لا يليق أن تركب حماراً».

قلت: وقد صار فى وسعى أن أضحك — «فى وسعك أن تعلق ورقة تكتب فيها أنه جواد مطهم».

قال: «لا تمزح، قم اركب حمارى هذا».

قلت: «إذا كان الحمار عاليًا فما الفرق بينه وبين الجواد؟».

قال بلهجة اليائس أو المنتقم — «إذن خذ هذا».

وأشار إلى جحش قمىء مهين يركبه خادم، لا سرج عليه ولا لجام له، فقمتم إليه وامتنطيته بوثبة واحدة وبلا معين.

واعترضتنا قناة عريضة عليها ألواح مثبتة تقوم مقام الجسر، وبين الألواح، والماء تحتها، متر على الأقل فلما توسطها الجحش بدا له أن يقف، وراقه منظر الماء، فأجال فيه عينيه برهة ثم خطا إلى حافة الجسر — ولم يكن له حاجز — ومد عنقه إلى الماء، فظننت أنه قصير النظر وأنه يفعل ذلك ليكون أقدر على رؤية خياله فى الماء واجتلاء طلعه البهية فى صقاله، ولكنهم قالوا لى: إنه كان يريد أن يشرب. فنزلت عنه وقلت

له: «يا عزيزى إن من دواعى أسفى أنى مضطر أن أتركك إلى الماء وحدك. فإن ثيابى يفسدها الماء وهى غالية إذا كانت حياتى رخيصة».

ولكنه بعد أن فكر قليلا غير رأيه، إما لأن الصورة التى طالعتة فى صفحة الماء كانت مضطربة مشوهة وعجز الماء عن أداء ما فيها من جمال وروعة، أو لاعتبارات حمارية أخرى لم يكشفنى بها. فأدار وجهه ومضى غير ملتفت إلى، غير أنى لحقت به بعد أن اجتاز الجسر، وقلت له: «تعال لا تهرب منى يا صاحبى» وكنت على ظهره قبل أن يتمكن من الاعتراض أو الاحتجاج أو الإفلات.

ويطول بنا الكلام إذا أردت أن أصف كل ما أمتعنى به من الفكاهات العملية، فقد كان فيه عناد وصلف، وكان يأبى أن يتوسط الطريق ولا يرضيه إلا أن يحك جنبه فى كل ما يلقيه من شجر أو عربة أو حائط، وكان ربما وقف وغرس رجله فى الأرض. ونام. وتعودت منه ذلك وفطنت إلى أنه ذو مزاج مستقل، فكنت أتركه واقفا حتى ينتبه من هذه الإغفاءات، أو يعود إلى من سبحات عقله السقراطية، فنستأنف المسير وحسبى وحسب القراء أن أقول لهم: إنى أسفت على فراقه لما انتهت الرحلة، وتمنيت لو أن صحبتنا كانت أطول.

الفصل الثاني عشر

الطفولة الغريبة

أظننى كنت فى الرابعة أو الخامسة، فما أذكر على التحقيق كم كانت سنى — والطفل عندنا — أعنى فى بلادنا — لا يفكر — أو على الأصح لا يسمح له أن يفكر فى مثل هذه السن، ويخيل إلى الآن وأنا أدير عينى فى تلك الأيام كأن وظيفة الآباء والأمهات كانت صرف الأبناء عن النظر والتفكير، وإلزامهم الجمود ونهيههم عن كل حركة جسمية أو عقلية. والطفل — كما تعلم الآن — أكثر ما تكون حيويته فى أعضائه، فرغبته فى الجرى والوثب وما إلى ذلك طبيعية، وهو أشد من الكبار صبرا على ذلك ولجاجة فيه لقله ما يشغله غيره، وهو جديد فى هذه الدنيا فشوقه إلى معرفته معقول، ومن هنا مد يده إلى كل ما تقع عليه عينه وتناوله وتقليبه وتحطيمه أو إفساده، وليس التحطيم أو الإفساد غايته، ولكنها المعرفة، والآباء يشفقون على أشياءهم من مغبة هذا التناول، فيمنعون التجربة ويأخذون على المعرفة طريقها.

ولست أذكر أنى هممت مرة باللعب إلا زجرنى عنه واحد من الكبار، أو مددت يدى إلى شىء إلا نهيت عن لمسه، وما كان أصعب السكون المقضى على به، بل ما أقل ما كان الجمود يرضيهم! فأنا إذا لعبت «شقى»، وإذا سكنت فلا شك أنى مريض! وكان ملجئى الوحيد أبى، هو وحده الذى كان يبدو لى أنه يفهم. وقلما كنت أجالسه لأنه رجل، والرجل فى ذلك العصر، مكانه بين الرجال لا بين الأطفال والنساء، حتى الأكل كان يتناوله وحده، أو مع ضيوفه فى «منظرة» الرجال. حتى القهوة تصنع وترسل إليه. فهو فى منزله وحده، وكل من فى البيت يخدمه حتى أمى. بل حتى أمه هو. يستيقظ أهل البيت ويكون هو لا يزال نائماً. فالكلام همس، والسير على أطراف الأصابع، والأطفال يحملون إلى مكان قصى من تلك الدور القديمة الواسعة لئلا توقظه ضوضاؤهم. ثم يفتح عينيه ويتثاءب فينقلب السكون جلبه، هذه تجىء بالطشت والإبريق للوضوء،

وهذه تعد الشاى، وتلك تهىء الطعام، وكأنما يتعمد كل إنسان أن يسمعه صوته ويثبت له أنه يتحرك فى خدمته، فالأصوات عالية، والنداءات متتابعة، «والقباقيب» ملبوسة والأرجل تدب، ويكون الشىء المطلوب تحت أنف الطالب فيقطع المكان ذاهباً وآيياً عشر مرات قبل أن يمد يده إليه، ويصيح وينادى ويسأل عنه كل مخلوق قبل أن يتفضل ويراه، ويحاسب كل من فى البيت على اختفائه ويتوعد وينذر، حتى إذا ظهر — وهو أدنى شىء منهم جميعاً — انطلق طالبه المتعامى عنه يصف الإهمال والعمى بما يفتح الله به عليه. ثم تقص هذه الحكاية بتفصيل واف شاف لأبى وهو يفطر أو يشرب القهوة على سبيل الاعتذار من الإبطاء، عليه والشكوى من الخدم وسائر أهل البيت، والتذمر من الدنيا وسوء الحظ فيها، والتبرم بهذه المتعبات التى تحفل بها ساعات الليل والنهار.

ولا أزال أذكر «علقة» من أجل هذا، وكانت أمى تطلب الطشت من الحمام والإبريق على بابه، فاحتملت الخادمة الطشت وذهبت به ولم تر الإبريق، فذهبت تسأل عنه خادمة أخرى أصغر منها وتصحح بها: «أين وضعت الإبريق يا ملعونة؟». فقالت الصغرى فى ذلة وخوف: «لم أره والله!». فصرخت الكبرى: «كيف لم تريه؟ لقد وضعته بيدي فى الحمام فهل أخذه العفارىت؟!».

الصغرى: «والله العظيم والله العظيم.. وحياة النبى..». **الكبرى:** «لا تحلفى يا ملعونة. سيصيبك العمى يوماً من الأيام من كثرة الحلف كذباً. أقول لك: هاتى الإبريق وإلا صار يومك أسود؟!». **أمى** (بصوت عال جداً): «أجئنتما؟ ما هذه الضجة؟ ألا تستحييان أن تتصايحا هكذا وسيدكما فى البيت؟». **الكبرى:** يا سيدتى لقد أضاعت هذه البنت الإبريق. وانظرى كيف تحلف أنها لم تراه.

أمى: أين يا بنت الإبريق؟

الصغرى: والله العظيم والله العظيم.. والله.. و..

أمى: ألم أقل لك كفى عن الحلف.

ودفعتها بيدها وأطلقتها لتبحث عن الإبريق فدخلت المسكينة ووقفت بباب الحمام وأسندت كتفيها إلى الحائط ولكنها لم تبحث عن الإبريق، وكان بجانبها على مسافة شبرين منها، بل وقفت تبكى لا كما يبكى الناس، بل بحنجرتها دون عينيها. أعنى أنها كانت تخرج مثل صوت الباكي المعول ولكن عينيها جامدتان.

ودخلت في أثرها الخادمة الأخرى وأمى وراءها. وعلا الضجيج وكثر الكلام، وكنت أنا أشاهد هذا كله وأرى الإبريق، ولكنى كنت مفتوناً بهذا الحوار الذى يدور على لا شيء، فلم أدلهم على مكانه، ولو أنى تكلمت لضاع صوتى الصغير ولغرق في طوفان هذه الضوضاء، على أنى لم ألبث أن شعرت كأن رأسى سيتهدم وعجزت عن احتمال هذه الحال، وبدا لى — لسوء الحظ — أنى حقيق بأن يكون لى من احترام النساء للرجال حظ ولو قليلاً قياساً على ما أراه من إجلالهن لأبى، فصحت بهن — وأمى في جملتهن —.

«يا للعمى! ألا ترين الإبريق وهو تحت أنوفكن؟ ما هذه الضجة الفارغة؟ لقد أوجعتن رأسى!».

فكان جزأتى — كما أسلفت — علقه.

نعم، كان المنزل جحيم الطفل. فهو مطالب بأن يكون له عقل الكبار واتزانهم وفهمهم، ولكنه محروم من مزاياهم ولا يعامل معاملتهم. وكل شيء يصدر عنه معيب وخطأ. فاللعب عيب، والصمت عيب، والتهويم فى المجلس عيب، والأرق عيب، والاستفهام عيب، ولا شيء فيما يرى الطفل محمود مشكور. ماتت بنت خادمتنا — وكانت فى مثل سنى — ولم أعلم أنها ماتت — لأنهم أجلونى عن البيت وأرسلونى إلى عمى، فلما عدت ولم أجد ما سألت عنها لأنى افقدتها، فكان كل من أستفسر منه عن اختفائها يتجهم لى وينهرنى عن السؤال لأنه عيب. فذهبت إلى أبى، وكان حليماً صبوراً رضى الخلق، فسألته عنها فأخبرنى أنها ماتت. فعجبت ولم أفهم كيف تجرؤ أن تموت. فسألنى أبى بدوره عن سر عجبى. فقلت له: «لأنها صغيرة».

قال: «ولكن الموت يترك بالكبار والصغار على السواء».

فألححت وقلت: «ولكن يا أبى إنها لا تزال صغيرة فكيف يجوز أن تموت؟».

قال: «يا بنى لا اعتراض على قضاء الله».

قلت مصرًا: «ولكنها صغيرة وهذا عيب». فضحك ومسح رأسى بكفه فلم أزد إلا لجاجة وقلت: «يا أبى. هل تسمح لى أن أفهمها أن هذا عيب وأنها لا يصح أن تموت؟». قال وقد ضجر على ما يظهر، وإن ظل يبتسم: «يا بنى كيف يكون الموت عيبًا؟» قلت مستغربًا: «أليس الموت عيبًا؟» قال: «كلا. إنها آجال».

فأعجبنى أن يكون الموت آجالاً وطربت جدًّا. ودنوت منه ووضعت كفى على خديه وقلت وقد خيل إلى أنى ظفرت بملهاة جديدة: «إذن ليس من العيب أن أموت أنا أيضًا». فصاح بى: «أعوذ بالله» واكفهر وجهه لا أدرى لماذا «إياك أن تقول كلامًا كهذا مرة أخرى».

لا أدرى لماذا! ... لقد فهمت ... ولكن بعد سنوات، ترى ألم يكن فى الوسع اختصارها.

وصار لى أخ صغير. لم أره حين جاء لأنى أجليت عن البيت، فلم أكن فى استقباله. ولما عدت وأخبرونى وسألت عنه من أين جاءوا به قالوا، أو فهمت أنا منهم: إنه من عند الله، وإن الله هو الذى يرزق الآباء، فاقتنعت ورحت بعدها أتوقع أن ألتقى كل يوم من عند الله أخًا جديدًا وسأنى أن يرزقنى الله أخًا لا أختًا.

فسألت أبى: لماذا لم يرسل الله لى أختًا بدلًا من هذا الأخ؟ قال: هذه مشيئة الله ولا حيلة لنا فيها.

قلت: ولكنى أريد أختًا..

فقال: ادع الله.

فلبثت بعدها أدعو الله ولاسيما قبيل النوم، وكنت أتوقع فى كل مرة أن أصبح فأجد الأخت المرجوة تحت السرير أو فى الدولاب أو بجانبى، ولكن الله لم يستجب لى قط.

وكان فى البيت اثنان لا أراهما أبدًا وإن كان ذكرهما على لسانى أبى وأمى، وهما «الست» و «الأفندى» فأبى يقول للخادمة مثلًا قولى كذا أو كذا «الست»، ويتحدث فى أوقات شتى ولاسيما حين يكون معه رجال من أقربائنا عن هذه «الست»، وأمى لا تفتأ تقول «الأفندى قال — أو الأفندى أتى — أو الأفندى خرج» فأعجب أين هما؟ ولماذا لا أراهما؟ وأصعد إلى السطح باحثًا عنهما فلا أجدهما، وأدخل كل غرفة فلا أهتدى

إلى أثرهما، وأنزل إلى فناء الدار فلا ألتقى بهما. أين ينامان يا ترى؟ ماذا يأكلان؟ ألا يظهران أبداً؟ وعلى كثرة ما فكرت في أمرهما وبحث عنهما لم يفتح الله على بخير من أنهما لا محالة يلبسان «طاقية الإخفاء»، ولشد ما كان يلج بى الشوق إلى رؤيتهما، يدركنى العطف عليهما أيضاً! وكثيراً ما كنت أقوم من النوم على صوت — لعله موهوم — فأتخيل أنهما داخلان، وأرهف سمعى وأنشر أذنى فى الليل وأفتح عينى جداً وأحدق فى الظلام، وقد قمت على ذراع وربما تسللت إلى كل غرفة لعل أبصرهما، ناسيا فى سبيلهما مخاوفى وما تتيره الظلمة، فى نفوس الأطفال.

واتفق مرة أنا كنا جميعاً جلوساً فى غرفة أبى وكان مريضاً — فدخلت الخادمة فأسرت شيئاً إلى أمى فقالت لها هذه «أخبريه أن الأفندى مريض» فصعدت روحى إلى حلقى وشعرت بالأسف على «الأفندى» والألم له، والفرح أيضاً لأن مرضه قد يتيح لى أن أراه أخيراً..

ودنوت من أبى — وكنت عليه أجراً، فابتسم لى ومد يده فوضعها على كتفى فأطرقت برهة ثم رفعت عينى إليه وقلت: «بابا».

قال: «نعم» وجذبنى إليه فى رفق وعطف.

قلت: «كيف صحة الأفندى».

فضحكوا جميعاً — أبى وأمى وجدتى وعمتى و.. لا أدرى من أيضاً.

وقبلنى أبى، ولكنه لم يجبنى لا هو ولا سواه. فلم أفهم هذا، وأحسست بالغيب، ورحت أنظر فى وجوههم نظر المحقق. ثم تولنى العناد، فعدت إلى أبى أسأله عن صحة «الأفندى»، فنظر أبى إلى أمى فتناولت هذه يدى وقالت: «عيب الأولى كانت عفواً. وقد فأتت ولكن لا يليق أن تكررهما».

فكدت أجن. لماذا يخفون عنى الأفندى والست وهما يراهما كل إنسان سواى، ويحادثهما على ما يظهر لى مما أسمع؟ لماذا أحرم وحدى أن أبصرهما وأكلمهما؟!.

فقلت: «ولكنى أريد أن أرى الأفندى».

فقال أمى: «عيب قلت لك عيب».

وفى هذه اللحظة دخل جدى على مهل، وتظهر أنه سمع أمى. تنهرنى وكان شديد الحنو على فسأل «ماله؟».

فقصوا عليه الحكاية. فابتسم وأجلسنى على ركبتيه ولم يزل بى حتى سرى عنى، وجفت دموع الغيب التى كانت تترقرق فى جفنى فشرحت له المسألة وكشفت له عن

جهدى التى بذلتها فى الاهتداء إلى «الست والأفندى» ولم يبق فى الغرفة أحد لم يضحك منى. ولكنى كنت فرحا بإصغاء جدى وتشجيعه لى، وما كان يبدو على وجهه من الاغتياب والجدل، فلم أعبأ بالضحك، ولما فرغت سألته: «والآن هل ستخفيهما أنت أيضاً عنى؟».

قال: «لا. لقد أخطأوا معك يا بنى. وكان حقهم أن يدلوك». واستغنيت بعد ذلك عن البحث والتنقيب فقد عرفت «الست والأفندى» وضحكت أيضاً لما عرفتهما.

مقتطفات من مذكرات حواء

تنبيه

هذه المذكرات موضوعة على نسق (مذكرات آدم) للكاتب الأمريكى مارك توين (سامويل كيمينز) وهى تشبهها فى الأسلوب الفكاهى، وقد جاريته فى أشياء لم أدر كيف أخالفه فيها، مثل إنكار آدم أن حواء مخلوقة من ضلع من جنبه، واستغرابه بكاءها — والبكاء أشبه بالأنوثة — وعدم فهمه الأمومة الخ. الخ.

وقد أردت أن أمثل بهذه المذكرات لما يأتى:

- أولاً: أن الخلود يمتنع معه الإحساس الجنىسى، وأن قضاء الموت هو الذى يثير هذا الإحساس وينشئ غيره أيضاً.
- ثانياً: أن المرأة مخلوقة للنوع فالغريزة الجنسية فيها أقوى منها فى الرجل.
- ثالثاً: أن المرأة أقدم معجم للغة، فهى التى وضعت الأسماء ونحتت واشتقت وصقلت الألفاظ بكثرة الاستعمال.
- رابعاً: أن الخجل من مقتضيات المعرفة والإدراك.
- خامساً: أن الأمومة أقوى وأبرز من الأبوة، لأن المرأة هى الأداة لحفظ النوع.

وقد تناولت هذه المعانى من قبل فى مقالات عدة، نشر بعضها فى (حصاد الهشيم) مثل (الجمال فى نظر المرأة) و(مقتضيات الخلود) وفى (قبض الريح) مثل (المرأة واللغة أول معجم وأقدم ديوان) ومقالات أخرى نشرتها فى (السياسة الأسبوعية) ولم تجمع بعد فى كتاب.

(١) في الجنة

السبت — وجدت أن ما أغراني به آدم من كتابه المذكرات اليومية قد شغلني عنه، وأتاح له أن يطوف في الجنة وحده، وهو لا يفتأ يصبحنى بالسؤال عن مذكرات اليوم السابق هل دونتها، وينصح لي بأن أكتبها قبل أن أنسى ما حدث، ولا أكاد أشرع في الكتابة حتى أراه ينسل ويذهب لا أدري إلى أين، ومن أجل هذا عقدت النية على ألا أكتب إلا في الليل بعد أن ينام.

الاثنين — آدم لغز لا أكاد أفهمه، لم يكن يعرف حتى أن اسمه آدم، ومن قوله أنه لا يشعر بالحاجة إلى اسم ما، ولما قلت له يوما إن اسمى حواء قال: (ربما!) أليس هذا منه عجيبي؟ وأعجب من ذلك أنى قلت له إن عليه من الآن فصاعدًا أن يدعوني باسمي، فإنه أعذب في أذني من (هش هش) التي لا يزال يفتح فمه بها على، فقال: إنه يقصد — حين يصيح بي: (هش هش)، أن أذهب عنه لا أن أتى إليه، وأنه لا يحتاج أن يناديني أو يدعوني لأنى لا أكاد أفارقه، فمن العبث أن يكون لي اسم إذا كانت فرصة استعماله لا تعرض أبدًا، فلما احتججت عليه بأن لكل شيء في الجنة اسمه الذي يعرف به، زعم أنى أنا التي اخترعت هذه الأسماء وأطلقتها على مسمياتها، وأنه لا يدري لماذا جشمه حفظ هذه الأسماء كلها وتصديق رأسه بها، وزاد على ذلك أنه لا يرى هذه الأسماء منطبقة على الأشياء أو موافقة لها، ودليله على هذا أنه ما من حيوان يجيبني حين أدعوه باسمه، ولكن هذا مع ذلك لا يعنيه، وإذا كان يروقني أن أكلف نفسي مشقة التسمية فأنا وما اخترت لنفسى، غير أنه يرجو منى ألا أشركه في هذا العبث.

وهذه أول مرة سمعت من آدم مثل هذه الكلم فحز في نفسى وألمنى فبكيت وتوجعت، ولشد ما كانت دهشتي حين نهض آدم ودنا منى ورفع وجهى إليه وجعل يتأمل عيني! بل لقد هم بأن يضع إصبعه في عيني، فنحيت يده عن وجهى وقلت له وقد غيظ الغيظ والغضب عبراتي: «ألا تكفيك قسوة لسانك حتى تريد أن تتفقأ عيني؟».

فادعى أنه لا يفهم كلامى وزعم أنه إنما كان يبغي أن يرى من أين يجيء الماء الذى يسيل من هذين الثقبين في وجهى. وقال: إنه لم ير حيوانا آخر غيرى يفيض الماء من ثقب وجهه، فصدفته عنه وبى من الألم مالا أحسن وصفه. فلم أر أنه عبى بصدى عنه شيئًا، وطال انتظارى أن يعود إلى ليعتذر، فخرجت من الكوخ أطلبه فألفيته ممسكا هرة يحاول أن يعصر لها عينيها وهى تجاهد تريد التخلص من قبضته القوية، فاخطفقتها منه وسألتها: (ما هذا الذى تصنع؟).

فلم يجبنى على سؤالى، ورفع إلى وجهها قرأت في أساريه الدهشة والملل وقال: «ها ها؟ أو جئت ورائى؟».

فأعدت عليه السؤال فكان جوابه أنه أراد أن يعرف من أين يجيء الماء إلى هذه الثقوب التى أسميها العيون. فأيقنت أنه لم يكن يروم أن يفقا عيني، وصفحت عنه وزدت تعلقاً به.

الثلاثاء — لا يزال آدم يضحك منى كلما خرجت إلى البركة لأنظر فيها إلى نفسى، ولأسيما بعد أن وقعت فيها وأنا أتأمل خيالى فى صقالها. ليته ينظر فى مائها الصافى مرة. إذن لكف عن هذه السخرية. وما أنسى يوم قمت فألفيتنى راقدة فى ظل وارفة الأطلال لفاء، وكيف ذهبت أعجب لنفسى: من عسى أن أكون؟ وأين أنا؟ وماذا جاء بى إلى هنا؟ وكيف كان ذلك؟ وكان على مقربة منى كهف يتدفق منه الماء إلى بركة. فقصدت إليها وانطرحت على بساط الروض، وجعلت أنظر فى الماء وإذا تحت عيني — فى جوف الماء — صورة تنحنى وترمقنى، فتراجعت فارتدت مثلى، فعدت أنظر، فعادت تحدى فى وجهى بعينين جميلتين يفيض منهما العطف والحب، فلولا صوت رحيم هفا به النسيم إلى «أن ما ترين ليس إلا صورتك وخيالك»، لما انصرفت عن الماء إلى هذه الساعة، وأن آدم لقوى وجميل، ولكن ذلك الخيال الذى يتراءى لى فى الماء أليّن وأعذب. الخميس — كل يوم يبدو لى من آدم خلق عجيب. كنت ألومه وأشكوه إلى نفسى وأؤنبه على هروبه منى واختفائه بين الأشجار، وأقول له فيما أقول: «إنى أنسى كل شىء حين أكون معك، حتى الجنة لا أبا إليها ولا أحفل ما فيها، وأن نسيم الصباح حين يهب بأصوات العصافير لذىذ، وأنه ليس أطيب من ربا الأرض بعد أن يجودها من السماء هاضب، ولا أرق من مقدم الليل علينا بنجومه الزهر وقمره السارى، ولكن ما من شىء فى الأرض ولا فى السماء يروقنى أو يفتننى إذا لم تكن معى. فالعجب لك كيف تطاوعك نفسك على مجافاتى والفرار منى وأنا بعضك؟».

ففتح عينيه جداً وقال: «بعضى، ماذا تعنين؟».

فقلت: «نعم بعضك! ألسنت قدخلقت من ضلع فى جنبك الأيسر؟» فوثب إلى قدميه وقال: «من ضلع فى جنبى؟ من قال هذا؟».

قلت: «إنها الحقيقة».

فرفع يده إلى صدره وجعل يمر بأصابعه على ضلوعه ويتحسسها بعناية، ثم نظر إلى وقال: «هذا غير صحيح. إن ضلوعى كاملة لا نقص فيها وقد عدتها أمامك».

الجمعة — قال لى آدم إن فى هذه التى أسميها «جنة عدن» أشياء كثيرة تسترعى النظر والسمع أيضًا، ولكنى لا أنتبه إليها لأن لسانى لا يكف عن الدوران، وأضاف إلى ذلك أنى أنا المخلوق الوحيد الذى لا ينتفع بعينييه وأذنيه. وأنى أفسد عليه الطواف فى «الجنة» وأحيل المقام فيها كالمقام فى «ذلك المكان الآخر».

وقد اغتنمت هذه الفرصة ونبهت آدم إلى أنى «أنثى»، وأن عليه أن يكف عن مخاطبتى أو الإشارة إلى بضمير المذكر، فهز رأسه وقال: إنه يشك فيما أقول، ولكن الأمر لا يعنيه وإنه سيتحرى مرضاتى ما دام أن هذا يسرنى، عسى أن يكف هذا الرضا من غرب لسانى الذى لا ينفك يعترض.

السبت — لم أكن أنوى أن أكتب اليوم شيئاً. ولكنى عثرت بقصاصة بخط آدم قرأت فيها هذه العبارة: «لقد كانت أيام الأسبوع كلها جمعاً قبل أن يأتى هذا المخلوق الجديد الذى نفى عنى الراحة وهدوء الليال...».

«بقية الكلام رديئة. ويظهر أن حواء كتبت تعليقها على عبارة آدم بسرعة وانفعال. على أنى مع هذا استطعت أن أقرأ الكلام ولكنى أعتذر للقراء فأنى أعلى بأبينا الشيخ عينا وأعظم إجلالا له من أن أسمح بنشر ما خطته أمانا المسكينة عنه فى ساعة من ساعات الغضب.»

الأحد — مواظبة آدم على الكتابة تدهشنى، وتعليه لذلك أبعث على الدهشة. فهو يقول: «إنه يقتل الوقت بذلك وينفى عن نفسه الملل. الملل حقاً.»؟ ألسنت معه أونسه؟ الثلاثاء — كان اليوم مطيراً عاصفاً فامتنع آدم عن الخروج من الكوخ، فتركته ومضيت إلى البركة غير أن المطر المنهمر شوه صورتى جداً، فانكفأت عنها آسفة، وأدركنى العطف على جرو صغير وجدته فى طريقى فحملته معى إلى الكوخ، ولم أكد أدخل حتى انتهرنى آدم وأنبئنى على ما يسميه حماقة الخروج فى مثل هذا الجو والرجوع بقدمين مثقلتين بالأوحال وتوسيع الكوخ بها. ثم سألتنى عما أحمل فقلت له: إنه جرو صغير أشفقت عليه من المطر والبرد. فقال: «لست أفهم هذا الولع بالحيوانات الصغيرة وضمها إلى صدرك وتقبيلك إياها ومناجاتها بأصوات لا معنى لها، وإزعاجى بعوائها ونباحها وموائها.» ثم انتزع منى الجرو وقذف به إلى الخارج.

الأربعاء — لست أنسى ما عشت نظرة الاحتقار التى رمانى بها اليوم آدم. كنت عند شجرة تين أقذف ثمرها بالحجارة. وحانت منى التفاتة فإذا آدم يرشقنى بهذه النظرة كأنه سمرنى بها إلى الأرض، ثم دنا منى وهو يقول: «هكذا ترمين» وتناول

حجرا وراح يقلدنى ويتثنى ويتعوج وتلقى الحجر فيقع عند قدميه. وبعد أن شبع من الزايرة على والسخرية منى اعتدل وقال: «هكذا يجب أن تفعل!» وسدد ساعده القوى وقذف الحجر فانطلق من يده يقول: «فوو» وهو التين إلى الأرض وتركنى ومضى.

الخميس — يقول آدم إنه أخطأ حين علمنى (الرماية) كما يسميها ويزعم أن تعليمه إياى أغرانى بأشجار الفاكهة وإنى الآن أفرط فى أكلها وإننا مهددون بنفاد هذا الغذاء أو (بالقحط) كما يقول على طريقته فى المبالغة. وإنه على أى حال لا يتوقع خيراً من وراء حبى للفاكهة.

السبت — مر اليوم بلا حادث يذكر سوى أن آدم وجدنى أتسلق الشجرة المحرمة فجذبنى بعنف وحذرنى من الدنو منها.

الأحد — قمت من النوم فلم أجد آدم فذهبت أبحث عنه فلم أهتد إلى مخبئه. وهذه رابع مرة يهرب فيها منى. فعدت إلى الكوخ متعبة وارتميت على الفراش الذى صنعته له من ورق التين، إلا فى سبيل الله ما كلفت نفسى من أجله.

الاثنين — لا يزال آدم هارباً وقد حفيت قدمائى. وأقلقنى هذا الغياب الطويل الذى لا عهد لى ولا له به. أتراه ضل الطريق؟ إنه غريب الأطوار فلا يبعد أن يكون قد خرج من الجنة.

الاثنين — بعد أسبوع كامل قضيته فى البحث وجدت آدم فى أقصى الشمال. لقد بنى له كوخاً صغيراً هناك: له الله فلولا الحية دلتنى على مكانه ... ولكن صبراً. الثلاثاء — لم أكن أحسب أن الحية تتكلم وتا الله ما أطيبها وأعذب لسانها وأحلى حديثها. لا أكاد أضمرها إلى صدرى حين يصفاح سمعى قولها «يا فتنة الدنيا ويا أجمل ما فى السموات والأرض ويا أم البشر» ولكن آدم يكرهها ويخافها ويحذرنى منها، ويقول: إنها نذير سوء وإن كان لا يكتمنى سروره بأن وجدت من يحادثنى غيره.

الأربعاء — كان آدم يتمشى اليوم وهو مطرق ويداه خلفه ويتمتم بكلام غير مسموع وليست هذه عادته فما رأيته يفعل ذلك من قبل. فتواريت خلف شجرة أراقبه، فلما دنا منى سمعته يقول لنفسه «وماذا أخشى من الموت إذا أكلنا من الشجرة وحل الموت فى الدنيا؟ إن الموت مرغوب فيه من أجل بعضهم على الأقل».

فمن بعضهم هذا؟ سأسأله عنه.

الخميس — قالت لى الحية إنها لم تكن تتكلم ولم يكن لها عقل ولكنها مرت بشجرة استطابت رائحتها فصعدت إلى أثمارها والوحوش ترمقها وتمد أعناقها فتقصر

عن بلوغ الثمر، وكانت جائعة فالتهمت منها ما لا يحسب الحاسب فتغير كل شيء في عيناها، ووجد لسانها السبيل إلى الكلام، وإن كان قد بقى لها شكلها، فوجهت عقلها إلى التفكير والتدبير في كل ما في السماء والأرض وما بينهما وأضافته إلى ذلك — شكرًا لها — إن كل ما في الدنيا من خير وجمال مجتمع في وجهي الملائكي، وإنها لم تر لي نظيرًا وإن هذا السحر الذي في عيني هو الذي جرأها على الظهور لي وأغراها بإدمان النظر إلى. فسألتها عن الشجرة أين هي فلما دلتني عليها إذا بها الشجرة المحرمة، فأنبأتها بأن ثمرها محرم علينا. فأعربت عن استغرابها بأن تحرم علينا فاكهة الجنة، فبينت لها أن لنا أن نأكل ما نشاء من فاكهة الجنة ما خلا ما تحمل هذه الشجرة وإلا كتب علينا الموت. فقالت الحية كلامًا كثيرًا معجبًا مطربًا شربته أذنأى بلهفة، فجعلت أرمق الشجرة، ومنظرها وحده غواية، وفي أذنأى من الحية عذوبة حديثها، ومضى الوقت وأنا أستمع إلى الحية وأرى الشجرة موقرة بحملها الناضج وأشم عبقة الطيب. وعضنى الجوع فامتدت يدي إلى الثمرة فقطفت واحدة ثم ثانية ثم ثالثة فتفتحت عيناى، وأبصرت العرى الذى أنا فيه، وقلت لنفسى: فى أية صورة أبدا لأدم؟ أؤنبئه بما وقع لى وطراً على من التغير وأشركه معى؟ أم أنفرد دونه بالعلم وأسد بذلك النقص الذى مُنى به جنسى حتى أساويه وربما فقتة، فإننى أرى ضعفى يسترقنى له؟ وهذا حسن، ولكن الله هو الذى رآنى وعلم أنى عصيته؟ والموت لابد آت بعد ذلك ولا مهرب منه الآن، وهكذا سأذهب أنا وتخلق الله لأدم حواء أخرى تعيش معه وتسعد بجواره. كلا. كلا. إننى أحب آدم وأستطيع أن أحتمل كل صنوف الموت معه، ولكنى لا أقوى على الحياة بدونه.

وثنيت خطواتى إلى الكوخ ولكنى لم أجد آدم، فدرت فى الجنة أبحث عنه فلم أعثر له على أثر، واضطرتت إلى الاختباء مرارًا لأن الوحوش كانت تتقاتل ويأكل بعضها بعضًا، ولم تعد تطيعنى كالعهد بها، ففرتت من الجنة بعد أن اختل فيها الأمن واضطرب حبل النظام، وأصبحت فيها فوضى، وجاوزت حدودها إلى الأرض.

الأربعاء — بعد أربعة أيام طوال وجدت آدم فألقيت عند قدميه الغصن الذى قطعتة من الشجرة المحرمة مثقلا بالتفاح الشهى، فنظر إلى نظرة استغراب وسألنى عن هذا الورق الذى أستر به جسدى فقلت ستعرف هذا متى أكلت من التفاح، فانتزعته منى وعرانى فخلجت فقال: لقد علمت أنك أكلت منه فقد هاجت الوحوش وهمت بأكلى، فركبت حمارا فارها لم يزل يعدو بى حتى عدا عليه نمر فنجوت بجلدى ولما أكد،

ورأيت المقام في هذه الجنة مستحيلا فخرجت منها وسيان عندي الآن أن أكل أو لا أكل فهاتي ما عندك فأني جوعان.

وقضم قضمة وجعل يتذوقها وتقول ما أطيبها والله وإن كانت في غير أوانها. ثم نظر إلى نفسه فأدرك أنه عار واستحيا فستر نفسه بالورق الذي نزعه عن جسدي ونظر إلى ثم أرخى طرفه وهو يقول: «ماذا تعنين بالوقوف عارية هكذا؟ اذهبي واستري نفسك» ففعلت.

الخميس — اعترف لي آدم بأنه كان لا يحسن معاملتي ونحن في الجنة وقال: إن عذره هو أن المرء لم يكن يستطيع أن يحسن شيئاً في تلك الجنة وقد كان يخشى ألا ألحق به ويتوقع أن تضنيه الوحدة وتسقمه الوحشة وقبلني «وعرفني» لقد خسرت الجنة ولكني ربحت آدم..

(٢) بعد الخروج من الجنة

الثلاثاء — تالله ما أقسى آدم في هذه الأيام! إنه لا يفتأ يعنفني ويلعنني ويحمل علي من أجل أن أكلنا من الشجرة المحرمة وخرجنا من الجنة، وهو الذي أثني على ذوقي لما أطعمته من التفاح، وقال لي فيما قال: «هاتي، ما أطيب هذه الفاكهة التي حرمانها، وإذا كان هذا طعم ما حرم علينا فليت الشجرة المحرمة كانت عشرًا!! وهلم بنا نلعب بعد هذا الطعام الشهى، فما أعرف جمالك قبل اليوم ألهب حواسي كما يفعل الآن».

ولم يدخر نظرة حب ولا تجميشة غزل، وأعداني وألهبني فقاذفته نارًا بنار، ثم تناول يدي ومضى بي إلى غدير ظليل الشاطئ فاضطجعنا على البساط السندسي، ونثرنا حولنا وتحتنا وفوقنا عبق الزهر — الفل والياسمين والنرجس والقرنفل — وروينا من الحب، ثم عقد النعاس أجفاننا فنمنا ملء عيوننا. ويا ليتنا لم نقم! فقد غدا على يلومني ويتوجع مما صار إليه، ويحن إلى ما كان فيه، فقلت له: إنه لو كان مكاني لفعل مثلي، وذكرته بأنه كان في الجنة يرمى إلى بالزمام ويلقى حبل على غاربي، وسألته لماذا تركني أفعل ما بدا لي ولم يأمرني — وهو الرجل وأنا المرأة — أن أجتنب الشجرة ولا أقربها؟ لقد كان سلوكه مغرياً لي ومشجعاً على اقتطاف هذه الثمرة المحرمة.

فثار بي يلعنني ويقول: «أهذا جزاء حبي لك أيتها المرأة الكنود؟ ألم يكن يسعني أن أدعك وحدك للموت جلبته على نفسك، وأن انجو بنفسى فلا أتبعك؟ أما والله لأنت والحية سواء، وأنتك لألم منها وأبغض، وما ينقصك إلا أن تكوني على مثل صورتها

وألوانها؛ ليحذرك الخلائق جميعاً، ولتتقيك ولا تغتر بصورتك السماوية! ألا لماذا شاءت
حكمة الله أن يخلق هذه البدعة ولم يشأ أن يخلق الناس كلهم ذكراً ويملاً الدنيا بهم
إذا كان لا بد من خلقهم؟

فبكيت واسترحمته وعكفت على ركبتيه أقبلهما وأمسخ عليهما وجهي، فرثي لى
ولان لى قلبه، فتشجعت وأدليت إليه برأيين يكفلان لنا الراحة ويقيان ذريتنا المصائب
التي كتبت عليهم بذنبنا. فسألنى عنهما فقلت: الرأى عندى — ما دام الموت لا مفر منه
الآن — أن ننتحر، فنستريح ونترك الدنيا كما كانت، لا ي عمرها أحد من نسلنا، أو أن
نتحرى ألا نجىء إلى الدنيا بنسل، فنحرم الموت حقه ونقضى عليه هو بالموت جوعاً.
فقال آدم: يا بلهاء أتحسبين أن الله يتركنا نفعل شيئاً من ذلك؟ لقد أخرجتنا
مشورتك من الجنة وهوت بنا إلى هذه الأرض، فأين يا ترى تقذف بنا مشورتك
الجديدة؟ اذهبى اذهبى!

بعد شهر — لست أمل التجواب فى هذه الغابة الكثيفة. فإن لها لسحراً شديد
الأخذ. وقد ظلمت فيها أمس وإن كنت لم أبعد عن الكوخ أكثر من فرسخ، فنشط
خيالى وراح يرينى أشباحاً ها هنا وها هنا بين الأشجار الغليظة الذاهة فى الهواء التى
تحجب الشمس فلا ينفذ منها شعاع. فوقفت برهة أفكر وأتخيل وأشرب نفسى روح
المكان فننق فوق رأسى غراب ففزعت ثم غضبت ثم غضبت على نفسى، لأنى فزعت
ورفعت طرفى فأبصرت الغراب على غصن فوقى يصوب نظره إلى، فاستحييت أن يرانى
كأنما كان قد فاجأنى فى خلوتى، فحذجته بنظرى فحذجنى بنظره، ولم يحول عنى
عينه، وكان كلانا صامتاً لا يقول شيئاً، ثم تقدم الغراب بضع خطوات على الغصن
ليكون أقدر على تأملى، ورفع جناحه ودلى رأسه من بين كتفيه، ونعق مرة أخرى نغمة
أحسست أن لهجتها مهينة مبطنة بالزراية فلو أنه كان يتكلم مثلى ومثل آدم ومثل
الحية لما قال لى بأفصح مما قال: «ماذا تصنعين هنا بالله؟» وليس هذا من شأنه ولا
كانت هذه الغاية له، وما من حقه أن يخاطبنا بمثل هذه اللهجة، ولكنى لم أرد عليه
استنكافاً منى للمناظرة مع غراب أسحم، وترفعنا عن المهاترة معه، فلبث برهة يدير عينه
فى، ورأسه ممدود إلى من تحت كتفيه ثم قذفنى بإهانتين أخريين لم أفهم معناه على
وجه الدقة، وإن كانت دلالتهم واضحة. فلم أشأ أن أجاريه فى بذاته وأمسكت عن دفع
الإهانة. ويظهر أن حلمى أطمعه فقد رفع رأسه وأطلق فى الغابة نغمة تبينت أنها نداء
فقد أجابه غراب آخر من قلب الغابة، وراح ذاك يسأل وهذا يشرح له الموقف، حتى ترك

الغراب المدعو ما كان فيه طار إليه وحط إلى جانبه فوقى، ومضى الغرابان الأسودان يتناعبان عنى ولا يحفلان بوجودى، فلو أنى كنت بعيدة عنهما بحيث لا أسمعهما ولم أكن تحت أعينهما لما أساء الأدب فى حقى إلى هذا الحد، فحرت وارتبكت، ثم بدا أن أدعهما وأمضى فى سبيل وأحسب أن الغرابين الوقحين قد سرتهما هزيمتى فقد مطا عنقيهما وراحا يضحكان منى ويرسلان خلفى الشتائم والإهانات حتى تواريت عنهما، وإنى لأعلم أنهما غرابان لا أكثر، ولكنه من المؤلم على كل حال، بل مما يكوى غرور الإنسان أن يرى حتى الغراب يهزأ به ويتماجن عليه ويصيح به «ما أطول شعرك؟» أو أليس لك ثوب تلبسينه غير هذا الجلد القديم؟ ارفعى ذيله فإنه يكنس الأرض ويثير الغبار».

ومن الغريب أنى ألفت نفسى عند باب الكوخ قبل أن أفكر فى الطريق الذى أسلكه، وهكذا اهتدت رجلاى بعد أن ضل رأسى، لقد كدت أهم بالبكاء ولكن فرحى بالرجوع سالمة أنسانى الدموع.

بعد أسبوعين — آدم يحمل على ويرهقنى بالعمل ويكتفى هو منه بالإشراف. ولا أدرى ماذا يكلفه «الإشراف»، ولكن الذى أدريه أنى مستعدة أن أقوم به عنه وأن أدع له ما أنا فيه، وقد ثقلت وأرانى أميل إلى التمرد، وسأدعى المرض غدا فإن لم تصلح الحال بعد فسأهرب وأختفى فى بعض الأدغال ليعرف قدرى.

بعد خمسة أيام — هربت ثلاثة أيام ثم لم أطق البعد عنه فرجعت إليه وادعيت أنى كنت تائهة، وقلت: «إنى منهكة ولا أكاد أقوى على النهوض» فخرج آدم متذمراً وغاب عنى اليوم كله فكدت أجن من الشوق إليه، وتبت من ذنبى واعترفت له بالحقيقة.

بعد ثمانية شهور — سميت قابيل، وهو حلو أحمر لا شعر عليه غض اللحم وأكاد من فرحى به وحبى له أكله! وكان آدم قد خرج للصيد فلما عاد بعد أيام سألنى عنه ما هو؟ فلم أدر كيف أقول، وحملته إليه وأدنيته من فمه ليقبله، فظن أنى أقدمه له طعاماً، ونحى وجهه وصدنى بيده وقال: أوحش أنا حتى أكله حياً؟ ولما قلت له: إنى «وضعته» وأنا عائدة إلى الكوخ لم يصدقنى وزعم أنى «وجدته» وقال: إن به مشابهة منى ولكنه صغير جداً فهو على الأرجح حيوان جديد وتناوله وجعل يقلبه ويفحصه فبكى وصاح فاخطفته واحتملته وضممته إلى صدرى ولا طففته حتى ثاب إلى السكون. ولما جاء الليل وبكى زعم آدم أن من الحماقة أن أسجن هذا الحيوان معنا، وأنه إنما يبكى ويصيح ويخرج هذه الأصوات المنكرة لأنه يريد أن يعود إلى جماعته، وهم

بأن يلقيه خارج الكوخ فعدوت وراءه وصددته. فقال آدم إنه لا يفهم سلوكى هذا وإنه لم يألف منى هذه العناية بالحيوانات الأخرى.

من مذكرات آدم

«لقد تغيرت حواء حتى لأكاد أنكرها، مذ وجدت هذا الحيوان الغريب الذى حفيت قدماى على غير جدوى فى البحث عن واحد آخر من مثله، فهى لا تخرج الآن للصيد أو للاحتطاب ولا تكاد تعنى حتى بإعداد الطعام. ولا تخطو خطوة إلا وهذا الحيوان الغريب مضموم إلى صدرها أو محمول على كتفها، وهو لا يكلفنا شيئا لأنه لا يأكل ولا يشرب، وهذا أغرب ما فيه. وأحسب حواء قد جنت فإنها لا تفتأ من حين إلى حين تلقمه ثديها فيعكف عليه بفمه الفارغ كأنه يأكل ولا شئ هناك؛ فليس أجن منها سواه! وما أغرب منظرها وهى تداعبه وتناجيه وتوهمه أنها تعض أنامله فيضحك، ولم أر قبل هذا حيواناً يضحك. لقد حيرنى جدا هذا المخلوق العجيب الذى تسميه حواء (قابيل) والذى لا أدرى ماذا هو؟ فهو ليس منا إذا كان لا يمشى مثلنا ولا يتكلم، وليس من الطير فما له أجنحة ثم هو لا ينهض فكيف بالطير، وليس من الحيوان فإن جلده أملس لا شعر عليه وليس له ذيل، وأكثر ما أراه مستلقياً على ظهره ورافعاً رجليه فى الهواء، ولست أفهم لغته، ولكن حواء تزعم أنها تفهمها وتجيبه إلى ما يطلب فيكيف عن الصياح ويضحك وينام، أما أنا فقد تقطع نومى مذ جاءتنا بهذا اللغز، سأغافلها يوماً وأسرقة وألقيه فى الغابة أو فى الغدير فإنى فى شك منه عظيم».

بعد بضعة شهور — لا أزال عاجزا عن فهم هذا اللغز الذى كنا فى غنى عنه، والذى يشرد عنى النوم، ولم أستطع أن أسرقه لأن حواء لا تتركه لحظة وقد نما بسرعة فصار خمسة أضعاف ما كان عليه لما جاءنا، وكان فى أول الأمر لا ينفك مستلقياً على ظهره فالآن يجبو على يديه ورجليه وقد يباغتني وأنا نائم فيضع يده الصغيرة فى فمى أو يقبض على أنفى أو يجذبني من لحيتى، ليست حواء وحدها المجنونة فسيلحق بها سواها قريبا، ولقد أشفقت على هذا اللغز وقلت آتية برفيق يؤنسه فى وحدته ويسليه فى غربته بيننا فجئت بدب صغير ولكنه لم يكد يراه حتى ريع وملأ الدنيا صياحا فلم أجد بدا من طرد الدب ورده إلى حيث كان.

أى شئ هو؟ هذا ما يحيرنى!! هو قط؟ لا! أو دب؟ لا! أو قرد؟ ربما، ولكن أين الذيل والشعر؟ سنرى.

بعد شهور أخرى — لا يزال هذا اللغز ينمو وهو الآن يقف على قدميه الخلفيتين ويمشى خطوات ثم يقف، وقد ظهر الشعر في رأسه وهو كشعرنا نحن لولا أنه أنعم وأخف وأقل سوادا وألين ملمسا، وكنت أتوقع أن يظهر له ذيل ولكن خيب أملى. وأقول الحق: لقد بدأت أخافه فإن هذا النمو الشاذ الذى لا عهد لى به فى حيوان آخر يوقع فى روعى أنى لم أر آخر هذه الحكاية. وما يدرينا غدا ماذا يكون منه؟ وقد رأيت أن الأحزم أن أنام خارج الكوخ من الآن فصاعدا، وأن أدع حواء وحدها معه، وليس هذا من الشهامة والمروءة فى شيء، ولكن ماذا أصنع وهى لا تريد أن نفرط فيه ولا ترضى أن تعترض عنه دبا أو قردا؟ فعليها إذن أن تحتمل وحدها عواقب طيشها وحماقتها. بعد أربعة شهور — عدت من الجبل بعد غيبة طويلة فألفيت اللغز يمشى على قدميه مثلنا ويذهب حيث يشاء وحده وينطق بما يشبه كلامنا فيقول «بابا — ماما — أومبو» فهل علمته حواء؟ لا أدري، وقد نبتت له أسنان ولم ينبت الذيل. ولما كنت سأعود إلى الجبل غدا فسأشير على حواء بأن تكلمه.

بعد خمسة شهور أخرى — فى كل طوافى وتجوالى فى الجبال والغابات والأدغال والأودية والسهول لا أعر على ند لهذا اللغز، وحواء تجد فى الكوخ — نعم فى الكوخ ومن غير أن تنتقل قدما — لغزا آخر شبيهاً بالأول من كل الوجوه فهو من فصيلته ولا ريب، وقد سمته هابيل، وحسناً فعلت فإن اللغزين شبيهان فما أحقهما بأن يكون اسمهما متقاربين. وقد سرنى أنها وجدت للغزها الأول مؤنسا، فما أشك فى أنه كان يألم هذه الوحدة ويحن إلى قومه.

اقتحمت على حواء أن تدع لى اللغز الجديد أجرى فيه تجاربى لعلى أهتدى إلى نوعه وأن تجتزى هى بالأول فأبت أن تصغى إلى، ولم تطق كلامى واحتملتها وخرجت، وتوعدتنى بالنزوح عن هذه البقعة من الأرض إذا لم أكف عن التفكير فى ذلك. ولست أفهم ذلك من حواء وما أراها إلا جنت تماماً لأنه إذا كان قد ثبت أن هناك أُلغازا كثيرة، وكانت هى قد وجدت منها اثنين — وجدتهما وحدها وبلا معين — فماذا يضيرها أن تلقى إلى بأحدهما وهى لا محالة واجدة غيره فى يوم من الأيام قياساً على ما حدث؟ الحق أن منطق المرأة غريب. ولم أكن أرتد إلا أن أفحصه فى أوقات الفراغ فقد خطر لى من حسن تقليده لحواء ولى أيضاً أنه ربما كان نوعا طريفاً من القروء. ولكن حواء فقدت عقلها فهى لا تعبأ بشيء من هذه الدنيا سواهما ولا تأتمنى عليهما لحظة.

بعد ثمانية شهور — قالت لى حواء اليوم وعينها تلمع إنها «ستضع» واحداً آخر، ولم أفهم منها قولها أنها «تضع»، هذه الألغاز، وهذه الأكاذيب بعض ما يسخطنى

ويثيرنى عليها، ولكنى أحسب المرأة لا تكون امرأة إذا لم تكذب فسألتها عن أدراها أنها ستجد لغزا جديدا فقالت بالتجربة، قلت: أية تجربة؟ فمضت بى إلى ركن مظلم فى الكوخ وأسرت إلى بصوت خفيض جدا — كأنما كان هناك أحد يسمعنا — أن اللغز معى الان. فنهضت مذعورا وقلت معك كيف؟ ودرت حولها أنفضها بعينى فلم أجد معها شيئا. فقالت: إنه فى جوفى. فارتعت وقلت: أترك يا.. قد أكلت أحدهما؟ وتراجعت عنها فضحكت.. إن حواء تخيفنى. فلن أنام فى الكوخ معها بعد اليوم.

بعد بضع سنين — لقد حللنا اللغز وعرفنا أن هذه الخلائق الجديدة بنونا. وهم الآن أربعة قابيل وهابيل وبنتان. ولنا العذر إذا كان الأمر قد خفى علينا قى مبدئه فما تسبق لنا بمثل ذلك عهد. وهابيل صبى وديع رضى الخلق وهو أحب إلينا من أخيه قابيل الذى أوتر أن يبقى كما كان يوم جاءنا دبا أو قرذا أو غير ذلك مما توهمته فى صدر حادثه. وقد أدركت الآن أن حواء أصدق منى فراسة وأذكى غريزة وقد زاد حبى لها وعطفى عليها. هى التى تنسينى الجنة وماذا كانت الجنة قبل أن أعرفها.

الفصل الرابع عشر

عاطفة الأبوة

١

قلت مرة لزميل من المدرسين الإنجليز، رزق غلاما: أتحب غلامك هذا؟ فأدهشه سؤالى ولم يخف تعجبه له، وتوهم بادئ الأمر أنى أتكلف التشكك، فلما بدا لى منه هذا الريب فى صدق سريرتى سألته: أظن أن فقد الأبناء فى طفولتهم يكون كفقدهم بعد أن يرشدوا، ويدخلوا فى مداخل الرجال من حيث وقع ذلك فى النفس؟ قال: كلا. وإن كنت والله الحمد لم أجرب هذا أو ذاك.

قلت: وكيف تعلق ذلك؟

فأطرق لحظة ثم قال؟ إنى أرد الفرق بين الوقعين إلى مبلغ الجهد والعناء فى تنشئة الطفل ورعايته حتى يكبر، فعلى قدر ما نبذل فى تربيته يكون حرصنا عليه وضمننا به وشعورنا بالخسارة حين نفقده.

قلت: إنكم معشر الإنجليز هكذا دائماً، حتى العواطف تقدرونها بالأرقام، على أن تعليقك — مع ذلك — صحيح إلى مدى كبير، وإن كنت لا أشك أنه كان يسعك أن تهتدى إلى عبارة أخرى غير هذه. والآن سؤال آخر — هبك رزقت غلاما ورحلت عن بيتك زمانا ثم عدت وقد شب الطفل وترعرع وأصبح فتى يافعا، أياكون شعورك نحوه كشعورك لو أنك كنت إلى جانبه، تراه فى كل ساعة وتراقب نموه وتفتح عقله؟ قال: كلا.

قلت: أظن أن من الضروري لنمو الشعور بالأبوة أن يكون لجهدك الذى تبذله مظهر مادى، كأن تتولى أنت مثلا الإنفاق عليه والسهر على تعليمه ومراقبة تدريبيه بنفسك إلى آخر ذلك مما يجرى هذا المجرى؟

قال: وكيف يكون الجهد غير ذلك؟

قلت: ألا يكفي مثلاً أن يكون جهد «عاطفة» يحركها ويثيرها قربها منك؟
قال: وما أشك في أن هذا يكفي.

قلت: نستطيع الآن أن نستخلص أن حياة الطفل هي التي تتيح للشعور الأبوى فرصة النمو، وبعبارة أخرى أن للعادة دخلاً لا يستهان به في قوة هذا الشعور. وليس معنى هذا أن العادة تخلق هذا الشعور خلقاً ولكن معناه، أنه يكون كامناً في النفس فتظهره، وضعيفاً فتقويه، وفاتراً فتكسبه الحرارة. والأبوة ماذا هي؟ أليست مظهرًا من مظاهر حب الذات والرغبة في تخليدها بتكريرها وإعادتها في شخص آخر هو بعضها؟».

قال: أحسبها كذلك.

قلت: ولكن التخليد معنى، أو إن شئت فقل إنه وهم وخيال تتعلق به النفس وتتغذى عن الفناء الذي تعلم أنه لا محالة مدركها، ولما كان كذلك، فرب نفس تكون أطلب له — بطبيعة استعدادها — من نواح أخرى غير الأبوة، وعلى طريقة غير طريقة التكرير والإعادة — إذا صح أن الأبناء صور معادة من الآباء، وهو غير صحيح، فما أظن بك إلا أنك ترى معنى أن هذه الإعادة تكون إسرافاً لا معنى له، وسفهاً لا تسوغه حكمة، وأخلق بالجيل الواحد من الناس أن يغني عن كل الأجيال التي تتلوها إذا كانت ستجىء مطابقة له غير مختلفة عنه، وما أحق الطبيعة في هذه الحالة بأن يحجر عليها.

قال: هذا كله صحيح بل بديهي..

قلت: أشكرك!

قال: عفواً. إنما أردت أن أسأل عن النتيجة؟

قلت: أريد أن أقول إن عاطفة الأبوة قد تكون في بعض النفوس أضعف منها في

البعض الآخر.

قال وهو يبتسم: ما أراك جئت بجديد.

قلت: بل أريد أن أقول إن بعض الناس لا يصلحون أن يكونوا آباء أو بعبارة أخرى أنهم بطبيعة تكوينهم لا يستطيعون أن يخدموا (النوع) من هذا الطريق، وهؤلاء هم الذين نسميهم النوابغ ونعني بهم طلاب المجد الأدبي أو الحربي أو العلمي، فكأن مساعيهم تستنفد حيوياتهم وتردهم غير صالحين لغيرها، ومن هنا ما يلاحظ من عقمهم أو قلة نسلهم أو سرعة انقراضه على خلاف السواد الأعظم من الناس وهذا السواد هو الذي يعمر الدنيا ويحفظ النوع الإنساني فيها.

والناس أكثرهم لا يفكرون، سألت مرة واحدًا من إخواني: لماذا تحب أبناءك؟ فكان جوابه: إنهم بعضه وفلذة من كبده.
ألم يقل الشاعر:

وإنما أبناؤنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض.

إلى آخر هذا الهراء الذى يعذب فى السماع وتأنس إليه النفس وإن كان لا محول وراءه، وقد أردت أن أنبه صاحبى هذا إلى ما بتعليقه من المآخذ فقلت: وهل أنت آسف على أبنائك الذين أخطأهم التوفيق ولم يتمكنوا من الانحدار إلى هذه الدنيا؟
قال فى وجوم: ماذا تعنى؟ من هم؟

قلت: إن الجواب الذى تطلبه يستوجب منى أن أصارك بحقيقة علمية لا أحسبك تجهلها، فأنا أذكرك بأن الرجل منا ينفث فى المرة الواحدة مئات من الملايين من الجراثيم، وكل جرثومة منها كافية لأن تخرج إلى الدنيا طفلا لو ساعفتها الأحوال وأزرها الحظ، ولكنه قلما يكون هناك أكثر من جرثومة واحدة هى السعيدة الموفقة، وما خلاها يذهب كما يراق الماء فى الصحراء فالإنسان — إذا اعتبر هذه الحقيقة العلمية — يفقد فى كل مرة ملايين من الأبناء بقدر ما يضيع سدى من ملايين الجراثيم، ولولا هذا الاقتصاد فى التلقيح لاستطاع فرد واحد أن يعمر لا الكرة الأرضية وحدها، بل مئات من الكرات الأرضية بنسله.

وهذه الجراثيم الضائعة، أو إذا اعتبرت ما كان يمكن أن يكون، هؤلاء الأبناء الذين لم يجيئوا بعضك أيضًا، وهم أفلانك أو أكبادك كما تقول أو يقول الشاعر، فلماذا لا نراك أو نرى أحدًا يأسى على فقدهم وهم بعضك، كما تفرح لغلام ترزقه، وتحبه لأنه بعضك؟

الحقيقة أن المسألة ليست أن الأب لا يحب أبناءه إلا لأنهم بعضه، فإن غريزة حفظ النوع قد تكفلت بنشوء العاطفة وبدفع الناس إلى طلب النسل، وهى عاطفة يسهل على الرجل — كما لا يسهل على المرأة — أن يحولها إلى مجرى آخر تخرج منه شيئًا مختلفًا جدًّا، وعاطفة جديدة وإن كانت مولدة من عاطفة الأبوة. وهبها لم تتحول فإن من الميسور أن تنمو وأن تستوفى حظها على التبني، كما هو معروف ومألوف.

على أن الرجل والمرأة ليسا سيين فى هذه العاطفة، وأكثر الفرق بينهما راجع إلى أن غريزة حفظ الذات أقوى فى الرجل من غريزة حفظ النوع، أما المرأة فعلى خلاف

ذلك، الغريزة النوعية فيها أقوى من الغريزة الفردية، إذ كانت هي بطبيعتها تكوينها، أداة المحافظة على النوع، وليس الرجل سوى عون لها على ذلك، ومن هنا كانت الأمومة وحواشيها أقوى وأبرز من العواطف المنبعثة من الأبوة.

بعد هذا الذى أسلفناه لا نظن القارئ يستغرب أن نقول أن عاطفة الإخاء عادة ليس إلا، وإلّا لا أكثر ولا أقل، وما أحسبها تختلف في حقيقتها عن عاطفة الصداقة، وكل ما فى الأمر أن اشتراك المصالح والنشأة الواحدة تجعل الروابط أمتن والأواصر أوثق. وليس أسهل من فسادها ولا أيسر من تفكك عراها إذا وقعت النبوة بين الأخوين لسبب من الأسباب، فلا مبالغة إذا قلنا إنها عاطفة لا تتميز إلا فى الظاهر وإلا من حيث الاعتقاد العام فيها، عن أية عاطفة تنشأ بين اثنين من أبناء آدم. وليس بالنادر ولا من الفلتات أن تؤدى أعاجيب ما تحدثه الوراثة إلى جعل الأخوين أشد ما يكون اثنان تنافراً، وقلما يفقد الوالدان حب بניהما أو الولد حب أبويه، ولكن ما أكثر ما يقع من التعادى بين الأخوين ويتباغضان؛ ذلك أن للأبوة أو الأمومة أصلاً تحور إليه ويبقى لها إذا فقدت كل معزز أو مقو، ولكن ما بين الأخوين لا يرجع إلى أكثر من المصادقة.

والناس يدركون هذا ويفطنون إليه بالسليقة وإن كانوا قلّ أن يفكروا فيه، فتراهم يطلقون لفظ الإخاء والتأخى على الصداقة ولا يستكثرون أن ينزلوا الصديق منزلة الأخ، ولا يحسون أنهم هبطوا بمرتبة الإخاء من أجل ذلك، ولكن الأبوة عندهم وعلى ألسنتهم فى كل لغة لها مقامها الذى تنفرد به ومنزلتها الملحوظة التى لا تدانيها منزلة. وليس أصدق من فطرة الجماعات ولا أصح أو أدق من تقديرها لهذه الصلات بما تجريه على ألسنتها — عفواً ومن غير تدبر — من العبارات الواسعة الدلالة العميقة المغزى.

٢

قال لى صاحب قديم خلطته بنفسى زمناً: «أصحيح هذا؟».

قلت: «ماذا؟».

قال: هذا الذى كتبته عن عاطفة الأبوة «قلت»: وما سؤالك أنت أنكار هو أم أسلوب جديد فى الإعراب عن الموافقة؟

قال: أما ما ذكرت عن عاطفة الإخاء وأنها لا تختلف عن الصداقة فى أصولها، وأن الناس يفطنون إلى ذلك بالسليقة فينعتون الصديق بالأخ، فصحيح، وكذلك ما أشرت إليه من أعاجيب الوراثة قد تقضى إلى التنافر بين الأخوين.

قلت: إن التعادى قد يقع بين الأخوة حتى من غير أن يكون للورثة دخل، وما أكثر الأسباب التى تؤدى إلى انفراج الحال ووقوع النبوة، كأن يكونوا من أم واحدة أو أب واحد — أى غير أشقاء — أو يكون أحدهم أكثر توفيقاً فى الحياة، أو أثر عند أبويه وأحب إليهما. وأحسبك تذكر قصة يوسف — عليه السلام — وحسد إخوته له لأنه أحب إلى أبيهم منهم: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ * إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ *﴾.

وهذه الآية الكريمة تريك كيف يتحدث الأخوة بقتل أخيهما ويأتمرون به ويفتقون على إلقائه فى الجب وتركه لمن عسى أن يلتقطه من المارة، وتذهب به إلى حيث يشاء من الأرض، وبيعه أو يتخذه عبداً له أو يصنع به ما يحب، كأنما لا يجرى فى عروقة نفس الدم الذى يجرى فى عروقهم، وكأنما لا تربطهم به صلة ولا تعطفهم عليه أصرة، وكل هذا لماذا؟ لأن أباهم فيما يرون أحنى عليه منه عليهم وأكثر شغفاً به ورقة له!

وأدل من ذلك وأولى بالملاحظة أن أباهم نفسه يدرك بفطرته السليمة وبإلهام حبه ليوسف، أن كون يوسف أحمًا لهؤلاء ليس يمانعهم أن يسيئوا إليه ويكيدوا له غيرة وحسداً، تأمل هذه الآية: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ *﴾.

والتاريخ حافل بقصص الأمراء الذين لم يتحرجوا أن يقتلوا إخوانهم ليتبوأوا عروشهم أو ليحلوا محلهم فى ولاية العهد أو ليتقوا تأمرهم عليهم، لا بل ليستولوا على زوجاتهم، وقل أن يقتل الولد أباه، وأقل من ذلك وأندر أن يغتال الوالد ولده، وعلى أى شىء تدور قصة هاملت الخالدة؟ أليس محورها كله أن عمه اغتال أباه وأفرغ السم فى أذنه وهو نائم فى الحديقة، ليخلفه على الدولة، ثم لم يرعه شىء أن يتزوج من كانت امرأة أخيه؟ والناس لا يستفزعون أن يتخذ المرء زوجة أخيه زوجة له بعد أن يسرحها أو يموت عنها، ولكن ما أشد استفظاعهم لأن يبنى المرء بمن كانت زوجة لابنه وأفزع من ذلك أن يتزوج امرأة أبيه، لأنها فى منزلة الأم، حتى لقد حرمت الشرائع ذلك، على حين كان المصريون يتزوجون الأخت ولست أذكر هذا إلا على أنه مظهر للشعور الفطرى العام الذى تقوم على قاعدته الشرائع والقوانين، وتدور عليه الآداب الصادقة لا التقليدية المتكلفة.

قال صاحبي: هذا صحيح، ولكن ألا ترجع عاطفة الأبوة إلى أكثر من العادة والإلف؟

قلت: من قال إنها عادة ليس إلا؟

إن الشعور الأبوى مرجعه إلى غريزة حفظ النوع كالحب، وأساسه في الرجل والمرأة واحد، غير أن الرجل أقوى تمثيلاً في حياته الفردية منه للنوعية، أعنى بذلك أن غريزة حفظ الذات أقوى فيه من غريزة حفظ النوع، ذلك أنه هو الذى يتولى مكافحة الطبيعة بما فيها من قوى وكائنات من جنسه وغير جنسه، وهو المتكفل بالسعى والذى يتعرض بسبب هذا كله للأخطار، فلا غنى له عن الاحتياط لدفعها بالقوة إذا تهيأ له ذلك، وبالحيلة والتدبير وحسن التصرف وما إلى ذلك إذا أعوزته المنة، والحياة ليست باللحمة السائغة فهو محتاح إلى مغالبة الصعاب ومعالجة تذليلها، وهو في كل خطوة يخطوها يصادف ما ينبه غريزة حفظ الذات أو صيانة النفس، ومن أجل هذا — كما قلت في «حصاد الهشيم» صارت هذه الغريزة أقوى وأنضج وأسرع تنبها وأكثر عملاً، لأن حياته تجعل أعماله متصلة بها أكثر من اتصالها بغريزة حفظ النوع، وهو لذلك أحس بها وأسرع تأثراً من ناحيتها، ومن هنا كانت الأنانية في الرجل أظهر وأقوى. والعامّة يلاحظون ذلك وتفطنون إليه ويذهبون فيما وضعوه من أمثالهم إلى أن الأم أحنى على طفلها من أبيه. وقد ترى الرجل يداعب طفله برهة أو ساعة، ولكنك قل أن تجد رجلاً يقوى على ما تقوى عليه المرأة من ملازمة الطفل، والمثابرة على مداعبته والصبر على التحدث إليه، ومن توهم فهم ما لعله يرتسم على صفحة وجهه من الحركات أو يند عنه من الأصوات، واحتمال ذلك وما هو أشق منه ساعة بعد أخرى، ويومًا بعد يوم، وشهرًا تلو شهر، وحولاً عقب حول.

أما المرأة فخلقت للنوع قبل أن تخلق لنفسها، وهى في سبيل النوع تحمل وتضع وتتعرض للموت الوَحَى ساعة يجيئها المخاض. وتكوين جسمها شاهد بأنها مجعولة أداة للنسل ووسيلة لحفظ النوع، ففى جوفها مكان معد للجنين تحمله فيه تسعة أشهر كوامل، ولها ثديان يدران اللبن، وجسمها مركب بحيث يتحول الغذاء إلى لبن ترضعه طفلها وتغذيه به حولاً كاملاً على الأقل.

فالعاطفة موجودة، ومردّها عند الرجل والمرأة إلى هذه الغريزة النوعية، ولكن اختلاف الرجل والمرأة من حيث التكوين وما أعدتهما الطبيعة له، ومن حيث طبيعة الحياة يجعل هذه العاطفة أقوى في المرأة وأنضج منها في الرجل، ثم تجيء الصور

الذهنية التي تحصل لكل منهما فتزيد هذه العاطفة وتضررها. وهذه الصور عند المرأة حشد حاشد وبحر زاهر لا آخر له ولا نهاية، فهي لا يسعها إلا أن تذكر ما عانت في شهور الحمل وما جربت في أطواره وأحست من حركات الجنين في جوفها، ثم ما كابدت من عذاب الوضع، وكم ألف ألف صورة تحصل في ذهنها بعد ذلك، مذ كان طفلها وليدًا إلى أن يشب عن الطوق ويدخل مداخل الرجال أو النساء، وكل حركة ومضة من ثديها وابتسامه ونظرة وتعيسة وعولة وصوت ونهضة وعثرة وخطوة — كل ذلك منقوش على صفحة قلبها مرتسم على لوح صدرها مذخور في رأسها، وجوها حافل بهذا الطفل، وحياتها كلها دائرة عليه غير منفصلة عنه، وماضيها كان تمهيدا له، وحاضرها مستغرق فيه، ومستقبلها آمال منوطة به، وأخلق بهذا أن يعيننا على تصور روعة الأمومة وعمقها وسعتها وانطواء كل أحساس فيها، وتسرب كل شعور إليها ومنها. ولما كان نصيب الرجل من هذه الصور التي تحصل في نفس المرأة أقل وأضال، فلا عجب أن يكون غذاء العاطفة الأبوية أتفه جدًّا مما يغذى عاطفة الأمومة. وهل الحياة إلا الصور التي تحصل في الذهن؟

يقول ابن الرومي في رثاء ابنه:

توخي حمام الموت — أوسط صبيتي	فله كيف اختار واسطة العقد
على حين شمت الخير من لمحاته	وأنست من أفعاله آية الرشد
طواه الردى عنى فأضحى مزاره	بعيدًا على قرب، قريبًا على بعد
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها	وأخلفت الآمال ما كان من وعد
لقد قل بين المهد والحد لبثه	فلم ينس عهد المهد إذ ضم في الحد
ألح عليه النذف حتى أحاله	إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد
وظل على الأيدي تساقط نفسه	ويذوى كما يذوى القضيب من الرند

إلى أن يقول:

وإنى، وإن متعت با بنى بعده،	لذاكره ما حنت النيب فى نجد
وأولادنا مثل الجوارح أيها	فقدناه كان الفاجع البين الفقد
لكل مكان لا يسد اختلاله	مكان أخيه من جذوع ولا جلد

هل العين بعد السمع تكفى مكانه	أم السمع بعد العين يهدى كما تهدى
أريحانة العينين والأنف والحشى	ألا ليت شعرى هل تغيرت من عهدى؟
إنى ما استمتعت منك بضمة	ولا شمة فى ملعب لك أو مهد
محمد ما شىء توهم سلوة	لقلبى إلا زاد قلبنى من الوجد
أرى أخويك الباقيين كليهما	يكونان للأحزان أورى من الزند
إذا لعبا فى ملعب لك لذعا	فؤادى بمثل النار من غير ما قصد
فما فيهما لى سلوة بل حزاة	يهيجانها دونى وأشقى بها وحدى

ولم نورد القصيدة كلها وإن كانت أبياتها جميعاً من هذا الطبق الرفيع، وإنما اقتصرنا على ما فيه تمثيل لما نريد، والذي نريد هو أن «نمو» عاطفة الأبوة أو الأمومة رهن بالصورة الحاصلة فى الذهن وبجهد النفس وبالأمل الناشئ. وفى هذه الأبيات المتخيرة صور عدة — صور قبلات يذكر الأب حلاوتها، وشمات لا تزال تتضوع إلى أنفه، وشمات لا يفتأ يحسها، وملعب للطفل وعين أبيه ترعاه وتلاحظه، وذكرى شتى يهيجها الغلامان اللذان أخطأهما الموت، بل كل شىء يهيج الشاعر إلى التذكر، وللمهد صورة وللحد أخرى، ولما كان للأمال فيه صور شتى ولما صار إليه فى التراب صور غيرها، يتخيلها الشاعر ويتساءل عنها مشفقاً موجعاً فيقول (ألا ليت شعرى هل تغيرت عن عهدى)، ولصحته صور محبة ولسقامه وذبوله وما أصابه من النزف وذواه على الأيدى، صور تكوى الفؤاد وتلعج القلب، وللمحاة وبشائرها وأفعاله وما كان يأنس منها وللرجاء فيه والفرح به وانتظار ما سيكون عليه ويصير إليه، لكل ذلك صورته العالقة بالنفس المتشبثة بالضمير، وهكذا إلى غير نهاية. وأين تكون نهاية هذا العالم الحافل بالذكرى المحشودة الزمر؟ وما ظنك بالألم وعالمها أحفل، وزمر ذكرياتها أحشد!

والذين تتحول هذه العاطفة الأبوية فى نفوسهم إلى مجرى آخر، أعني الذين يتبنون الآداب أو الفنون أو العلوم أو ما شاكل ذلك، يستغرقهم حب ما انصرفوا إليه وتخلوا له، ويدرى الناس مبلغ استغراق ذلك لنفوسهم واستيلائه على هواهم فيعجبون ويعدون شذوذاً ويحسونه عليهم، ولو أنهم فكروا فى أنهم اعتاضوا من الأبناء هذا الذى شغفوا به، وأنها هى عاطفة الأبوة فى صورة أخرى ومظهر جديد، لما بدا لهم فى أمرهم وجه غريبة أو شذوذ، ومن الذى يستغرب من الأب حب بنيه ووقف حياته عليهم وإفراغ جهده فى سبيلهم وقصر سعيه على خدماتهم؟ لا أحد! بل هذا هو المعقول، فمم

يدهشون ويعجبون حين تلبس هذه العاطفة ثوباً آخر أو تتدفق في مجرى جديد أو
تتخذ صورة غير المألوفة؟

كيف كنت عفريتاً من الجن

كان ذلك وأنا فتى يافع أسوم كل سرح، وأنهب بكل دلو، ولا أفكر في غير الساعة التي أكون فيها، ولا أبغى إلا أن أستوفى حظى في الحياة، وأن أستوثق من أن كرعنى منها راوية. وفي ليلة من ليالى الصيف الحميدة، ثنيت الخطا إلى البيت — وكان في حى «الصليبية» — بعد أن قضيت وطرى من شراب وسماع، فلما بلغته ووقفت على عتبة، ذكرت أن ليس به أحد سوى جدتى التى أوفت على التسعين، وأن المفتاح ليس معى، فقلت لنفسى «أيليق أن أزعج الجدة وهى تقوم مجهدة ولا تسير إلا إلى جانب الحيطان لتضع يدها عليها وتسند نفسها؟ كلا، أولى بى أن أدعها مستريحة وأن ألحق ببقية الأسرة — أمى وأخى — والجو رائق والمشى منعش».

وأوليت الباب ظهرى وانصرفت. ولم يكن الطريق إلى الإمام، فى تلك الأيام معبداً، ولا ترام هنا ولا نور، فليس طريق بأحسن أو أثر من طريق، فاخترت أقصر مسلك وهو الذى يمر بمسجد «السيدة نفيسة» ويخترق المقابر المبعثرة وراءه، ويتصل بالطريق العام المطروق عند آخره ومضيت أخبط فيه، وأتخبط أيضاً لأن كثرة المقابر وانتثارها وتزاحمها تضل ولا سيما فى الظلام، غير أنى لم أكرث لذلك ولا فكرت فيه، وفوضت الأمر لرجلى تدبان حيث ألفتا أن تدبا فى أوقات شتى من النهار والليل، وانطلقت أفكر فيما كنت فيه، وأردد فيما راقنى سماعه وأرجع ما شجانى من الأنغام، وأعيتنى «مقطوعة» وأحسست أن المشى لا يعيننى على ضبط الصوت فيها وأخرجها كما ينبغى، فوقفت وأسندت ظهرى إلى قبر وذهبت أغنى، وهى صورة لا تزال ماثلة بذهنى إلى هذه الساعة وإن كنت فى ليلتى تلك لم ألتفت إليها، ولا جعلت بالى لها، وكيف يعبأ شاب ثمل بالقبور وما انطبقت عليه؟؟! وعلى أنه متى كان المرء فى صدر العمر يفكر فى الموت على أنه حقيقة قريبة لا مهرب منها ولا معدى عن مواجهتها؟؟ إن الإنسان منا

ينظر في شبابه إلى الموت — حين يجريه شيء بباله — كما ينظر إلى شيء وراء الجبل — لا يفهمه ولا يدركه ولا يعرف كنهه ولا يتصوره إلا على أنه المجهول البعيد. ويشغله صعود الجبل وما يلقاه على هذا الجانب منه، وما يفتنه وهو يتوغل حتى يدنو من القمة، فتتزاخم في رأسه الخواطر والتكهنات عما وراء هذه الرباوة التي قضى الشطر الجميل من حياته في الصعود إليها، ويحضر إلى ذهنه شيئاً فشيئاً معنى الموت ومؤداه، ثم يستبد بخاطرته ولا يخاطره ويكون الإصعاد قد هد القوى كثيراً وأنهك الجسم فيتبدل إلى حد كبير من فرط التعب ويواجه فكرة الموت في شيء من الذهول يذهب برهبة الفناء ويسلبه الفزع.

وقفت إذن أغنى على القبر وأرسل الصوت في ظلمة الليل غير حافل بما حولى من القبور المتزاحمة أو عابئ بما تحتى من الرفات الدفين. رفات قوم كانوا مثلى في ميعة العمر وعنفوان الحياة وجهل الشباب يمرحون ويغنون ولا يفكرون فيما يصير إليه كل حى من الفناء الشامل. وما فتئت على هذه الساعة أعجب لذهولى إذ ذاك عن الموت وأنا فى وسط لجته الراكدة. أن الشباب رحمة، وكيف كانت الحياة تكون لو أن فكرة الموت كانت تخامر النفس من المهد إلى اللحد؟ كان حرياً بها إذن ألا تطاق وكان خليقاً بالمرء أن يكف عن كل سعى، وأن ينفذ يده من كل جهد يبذله فى سبيل أية غاية بالغة ما بلغت من السمو والفتنة، وما خير الحياة أو جدوى المساعى أو عزاء الغايات وهذه الهاوية مفتوحة لابتلاع الإنسان؟؟ إن الموت هو اليأس، ومن رحمة الله بالخلق أن الحياة أقوى، وأن إحساس المرء بها أعظم، وأن وقعها فى نفسه أشفع وأن استيلاءها عليه أتم، والشباب قوة دافقة، والحياة معه تكون جديدة، فلها كل حلاوة الجدة وسحرها، ولكنها فى الكهولة تكون شيئاً مألوفاً وتجارب معهودة معادة، ومن هنا لا يحس الإنسان بالفزع حين يخطر له أنه سيكف عن هذه الحياة التى ظل يذوقها حتى كاد يحتويها، ولولا أن الحياة عادة ككل شيء فى الدنيا، وأن المرء يألف أن يعيش وأن يتنفس الهواء لما استثقل أن يموت وأن ينقطع عن الدنيا، فالعادة والخيال الذى ينمو مع العمر، والإحساس بالنفس، هذا هو الذى يجعل الموت صعباً وتجعل لمفارقة الحياة ألماً. وعلى خلاف ذلك الأطفال والحيوان.

وبينما أنا واقف أغنى لمحت شبكاً مقبلاً ولم أشك فى أنه رجل فما تجرؤ المرأة — إلا فى الندرة القليلة — أن تسير بين القبور فى الليل فكففت عن الغناء وساورتنى الشكوك. وخطر لى أن القادم قد يكون لصاً، وقد لا يكون ذلك، ولكن وحشة المكان

وسكون الليل قد يغريانه بالتلصص. غير أنني طمأنت نفسي، وقلت — وماذا أخشى وليس معي شيء يستحق السرقة؟ إن هي إلا بضعة قروش لا تغنيه إذا فاز بها، ولا تفقرني إذا خسرتها، وأنا بعد خفيف الوزن سريع العدو وعارف بالمداخل والمخارج، وما أحسبه يستطيع أن يدركني إذا أطلقت ساقى للريح، فلا خوف من القادم، وليكن من يشاء، وليس من الحكمة أن أدع الخوف يشيع في نفسي فتظهر دلائله في صوتي وحركاتي، فيطمعه ذلك في إن كان رجل سوء، على أن الحزامة مع ذلك أن أتواري خلف قبر منزو، لأراه دون أن يراني، ولا أعرف ماذا هو، وليسر أمامي وأكون أنا وراءه فذلك أدعى إلى الاطمئنان.

ودنا القادم فإذا هو شيخ كهل، أبيض اللحية وفي يد سبحة، وهو يذكر الله أو يتلو من القرآن أو لا أدري ماذا كان يتمتم، وبأى كلام كان يحرك شفتيه، فغاضني أن هذا الشيخ الضعيف قد أفزعني، وكأنما تحركت نفسي للانتقام منه، فغافلته في بعض الطريق وظهرت له فجأة من وراء قبر، فريع المسكين وكاد يتهافت إلى الأرض، وأسرت فتواريت وعدت أدراجي مسافة قبر أو قبرين — أى بضعة أمتار — وكان الرجل يتلفت حوله فلا يبصر شيئاً ولا يسمع حساً فشد بعضه إلى بعض وتقل يمناً ويسرة ورفع صوته باستعاذة من كل شيطان رجيم، واستأنف التلاوة والسير، وأنا أتسلل بين القبور وراءه، وصارت خطاه أسرع، فأدركت أن الخوف لا يزال في قلبه، ووثبت إلى جانبه مرة أخرى، ومددت يدي بخفة فجذبت شعر لحيته فصرخ واختفيت، ودرت من وراء القبور فسبقته وأنا أكاد أجن من السرور والجدل، وصدرى يكاد ينفجر بالضحك المكثوم، وصبرت حتى مر بي فدفعت يدي إلى خصره ودغدغته فأقسم لقد وثب الرجل عن الأرض كأنما كنت قد غرزت في جنبه سيفاً أو حديداً محمياً ورأيت فرصتي سانحة — فقد بلغ الاضطراب بالرجل غايته، وصار يخلط في كلامه كالذي لا يعي ما يقول، فكان يصيح «أعوذ بالله من ...» من فرط ما أصابه من الفزع. وجئته من ورائه ورفعت صوتي بالزمزمة وبكل ما أستطيع إخراجه من الأصوات المنكرة فانطلق الرجل يعدو! وهكذا أفلت مني..! وكنت قد تعبت فلم أحاول أن ألحق به، فمشيت متمهلاً ونفضت التراب عن ثيابي وخرجت إلى الطريق العام المطروق وبعد قليل — ربع ساعة أو نحو ذلك — بلغت مسجد الإمام الشافعي وكان المؤذن يمهّد للأذان بغناء سخيف، والناس يخرجون إلى المسجد ليتهيئوا لصلاة الفجر، فرأيت جماعة يحيطون بصاحبى الشيخ وهو يقول لهم: «وكان كالقط الأسود، يثب على كتفى ويلحس لى خدى وينفذ

من بين رجل، ويدخل بين الجبة والقفطان، وكنت أستعيز بالله فتنشق الأرض ويغيب في جوفها، ولكنه كان يعود فيظهر لى أحياناً في صورة الدبة راكضاً على يديه ورجليه، وأحياناً أخرى في مثل كفن الميت خارجاً من تحت أحجار القبر، وقد تمزق اللثام عن وجهه وبرزت عيناه تقدحان بالشرر فأتلو ما تيسر من القرآن فيلتفت الوجه في خرقة ويهوى الجسم إلى جدته. ولست أنسى ما حييت أسنانه! لقد كانت كالجمرات لامعة حمراء وكانت تضطرب في فمه وتخفق كالنجوم والحمد لله الذى أنجاني من عناقه»..

فقال أحدهم: «أترأه هم أن يعانقك؟»

فقال الشيخ: «هم؟ هم؟ ما؟ أقول لك: إنه مد ذراعين كأنهما مئذنتين ودنا منى ليطوقنى بهما ولع الشوك الذى فى صدره كأسنان الحراب فلولا أن ألهمنى الله أن أقرأ آية الكرسي لكنت أنا الذى مت».

قال آخر: وهل مات؟ غريب!

فقال الشيخ: «لقد احترق، أحرقتة آية الكرسي. ثم استأنفت السير حتى بلغت هذا

الطريق عند» ...

ودار بوجهه ليشير إلى المكان الذى نفذ منه إلى الطريق العام فأبصرنى وراءه فاضطرب وصاح وهو يشير إلى بيديه: «أهه.. أهه.. أهو»..

فلم يفهم أحد سوى معنى صيحته وإشارته، ورددت الضحك الذى ازدحم فى حلقى والتفت ورائى، كأنما أريد أن أنظر إلى حيث يشير، وكان الرجل يتراجع ويلصق بالناس فسأله بعضهم: «أين؟ إنا لا نرى شيئاً!»

فمسح الشيخ وجهه بكفه وفاء إلى الهدوء وقال: «غريب! غريب! إن هذا الأفتدى يشبهه جداً».

فلم أر مانعاً من الضحك وقلت: «أترى لى وجه عفريت؟»

وكان بين الواقفين رجل أعرفه ذكياً خبيثاً ويظهر أن الشك خالجه فى الحكاية أو أنه فطن إلى بعض الحقيقة فقال لى: «اسمع. من أين جئت؟»

قلت «وقد أدركت ما يرمى إليه — جئت من هذا الطريق».

وكان هذا كذباً أو بعض الحقيقة. ولكنى خفت أن يجر الصدق على الفضيحة: فعاد يسأل. «هل جئت من السيدة نفيسة أو من القلعة».

قلت: «من القلعة ولا شك. ومن الذى يجرؤ أن يمشى بين القبور؟» فتمتم شيئاً لم أسمعته ومضى عنى ونجوت.

وهكذا عرفت أنى كنت فى ليلتى عفريتاً من الجن!

الفصل السادس عشر

رجل ساذج

كان لنا — ونحن شبان — رجل ساذج لم يعرف سوانا. كأنما قد هبط علينا من السماء. وكان الواحد منا يذكر معارفه أو يصف القرية التي هو منها، أو يقص علينا مغامراته، أو يحدثنا بمعاشقه، ويعرض ما عسى أن يكون محتفظاً به من مثل خصلة شعر أو منديل أو نحو ذلك، وهو واجم كئيب لا يفتح فمه. وكان يخشى ركوب الماء ويجزع من اضطراب الزورق على متنه، ولا يزال ينتقل من جانب كلما مال، ولقد اضطررنا مرة أن نشده إلى سارية الزورق لنستريح من قلقه. وأنشدته مرة قصيدة ابن الرومي التي يصف فيها ما لقي في البر والبحر من التباريح والمخاوف. فلما بلغت قوله:

لوافيت منه القعر أول راسب؟	ولم لا ولو ألقى فيه وصخرة
سوى الغوص، والمضعوف غير مغالب	ولم أتعلم قط من ذى سباحة
أمر به فى الكوز مر المجانب	وأيسر إشفاقى من الماء أننى
ككيف بأمنييه على مر راكب؟	وأخشى الردى منه على كل شارب

صفق وتحمس وقال: إن هذا «رجل عاقل» وبعد أيام انتحى بى ناحية وسألنى أتعرف ابن الرومي؟ فلم أعجب لسؤاله وقلت: «نعم» قال: «أرجو منك أن تعرفنى به، فوعده أن أفعل. وشاورت إخوانى كيف أصنع؟ ولما اتفقنا، قدمته إلى شيخ وقور كثر اللحية إلا أنه أحرق سريع الغضب وفى وسع القارئ أن يتصور ما وقع. وبحسبى أن أقول: إن صاحبنا خرج من مجلسه وقد أصابته عكازة الشيخ على رأسه وركبته، وكانت إصابة الركبة أوجع فظل يظلع أياما. وسألته بعدها عن ابن الرومي كيف

وجده؟ فكاد الدمع يطفر من عينه وقال في سذاجة محببة إلا أنها مغربة: «الحق على. إن التهجم على كبار الناس سوء أدب»..

ولست أنسى ما حييت حادثة أردنا أن نركبه بالدعابة فيها فأفضت إلى مأساة أو ما هو في حكمها. ذلك أننا أو همناه أن فتاة رومية تعمل في «بار» شهير تحبه؟ وألحنا عليه بذلك حتى صدق، وكنا نجيئه بقليل من الفستق أو الشكولاتة ونزعم ذلك هدية منها إليه، وكان هو حيا يخل حتى من مخاطبة الأغراب من الرجال فكيف النساء؟ فجعل يغشى هذا (البار) في الساعة التي يكون على الفتاة أن تجلس فيها إلى (الكيس) ويجلس بحيث يراها ولكن على بعد، فندعه أحيانا، وأحيانا أخرى نلحق به ونثنى على جمالها وبتنافس في وصف مفاتها، فيشرق وجهه وتومض عيناه، كأنما يحمد منا الثناء على حسن اختياره! ونروح نسأله ألا ترى كيف تغمز بعينيها؟ أليس من الواجب أن تبادلها غمزة عين بغمزة عين؟ فيفعل المسكين ونجاهد نحن أن نخترع سببا لما ننفجر به من الضحك. وما زلنا نحثه على استعمال إشارات الحب حتى صار يدخل البار ومعه طاقة شتى من الورود ما بين حمراء رمز الحب المتقد، وبيضاء عنوان الطهر والعفاف، وصفراء للدلالة على ما أصاره إليه السهر والبكاء واللهفة من ذبول لونه، فيجلس ويشعر يخاطبها بهذه اللغة الدقيقة، حتى إذا فرغ من هذا المعجم استعمل المناذيل يضعها على فمه، أو يكفكف بها الدمع الموهوم أو يفكر ما بين أصابعه. ولم يعد يبالينا أو يحفل بغيرنا من الناس، فقد اضطربت نفسه ولعجه حب هذه الفتاة.

والحق أقول: إننا أسفنا لما تبينا ما صار إليه الأمر، ولكننا لم نستطع أن نثنيه عن هذيان قلبه، وكان كما قلت ساذجا جدا حيا إلى درجة تفسد الحياة وتحيل الانتفاع بها من المستحيلات، ولكن الحب خلق شخصا جديدا وأسعفت السذاجة الحب وأعانتها على الاستبداد بنفسه، وما راعنى يوما إلا هذا المسكين يعود إلى ويقول: «هنتنى».

قلت وقد طاف برأسى أن المستحيل قد وقع: «بأى شىء؟».

قال: «لقد خطبتها!».

قلت ولم أستطع أن أخفى دهشتى: «خطبتها؟ أنت؟».

قال: «نعم، أأست أحبها».

فلم أدر أوهنته أم أرثى له؟ وخرجت من هذه الحيرة باجتناح الاثنين جميعا وسألته «ومتى الزواج إن شاء الله؟».

فطال وجهه فجأة وحاول أن يبتسم، ولكنه لم يوفق إلا إلى جعل وجهه مفرعا وقال: لن أتزوجها. وكأنما أحس أن الأمر يحتاج إلى إيضاح، فزاد على ذلك «أعنى أنى أظن خيرا لى ولها ألا أتزوجها».

فلم أرنى زدت بإيضاحه إلا حيرة فصحت به بلهجة قاسية: «إنك مغفل». فأدهشنى أن تنبسط أسارير وجهه وأن يقول: «نعم أنا مغفل ولم أكن قط أجهل ذلك. وأنت تعلم أنى أحبها وقد خاطبتها فى الزواج. فكانت كريمة جدًّا مؤدبة جدًّا. لم ترفض ولكنها لم تقبل أيضًا. والحق أقول يا صاحبى. لم يسعنى إلا أن أصارحها بأنى.. كما تعلم مغفل، وأنها تكون أسعد لو تزوجت رجلا.. رجلا.. غير مغفل.. يجب — مادمت أحبها — أن أقدم خيرها على رغبتى. أليس كذلك إن من حقها على وواجبى نحوها أن أراعى مصلحتها.. قل لى أليس هذا خيرًا؟»

فلم أقل شيئًا ومضيت عنه لا ساخطا ولا ناكما، ولكن فائض النفس جائش الصدر وماذا عسى أن أقول لهذا المسكين الطيب القلب؟؟ ولم نضح بعدها منه أبدًا.

الفصل السابع عشر

ابن البلد

البلد: القاهرة أو مصر — كما كانت، وكما لا تزال تسمى هذه العاصمة — أو طائفة من الأحياء هى الواقعة بين العباسية والسيدة زينب، وأبتها شخصية شاع فيها الفناء علوا وسفلا وعفت عليها المدنية فلا يكاد المرء يلتقى بها فى هذا العصر، وما أسرع ما تداعت الأسوار وطغى عباب الحياة! قبل عشرين سنة فقط كنت ترى ابن البلد هذا «مستفيضا» وتلقاه فى حيثما تكون ولا تخطئه عينك وهى تدور بلحظها، فهو رجل دنياه مصر أو تلك الأحياء القديمة منها، لا يعرف غيرها ولا يكاد يدرى أن فوق ظهر الأرض سواها، وهبه يدرى فما أقل ما يعبأ بذلك أو يحفله، والزمن عنده اللحظة التى يكون فيها، وهو ذكى إلا أنه جاهل، وظريف سوى أنه مغرور، وحى ولكنه لا يحيا إلا بحراسة، تدور الدنيا حوله على محورها أو على قرن الثور الذى يحملها ويدور رأسه معها ولكنه لا يعرف ولا يرى شيئا ولا يسأل عن شيء ولا يكتثر لشيء ويحتقر الريف لأنه يجهله، ويزدرى المدنية لأنه لم يألّفها، ويعتز بنفسه ويستضخم أمرها؛ لأنه سهر الليالى وأحياها بالغناء والشراب والعريضة وهو مثال الرضا عن النفس والجود الذى يخلفه هذا الرضا وإذا كان يرى كل شيء من قريب فما من شيء يدعوه إلى العجب أو يبتعث الرغبة فى الاستطلاع وكل إحساس له يصل إليه عن طريق الفكاهة، وأشد ما يبغض أن يضطر إلى الجلد والوقار، وليس فى نفسه محل للاعتراف بالجميل، والأمر عنده مجاملة متبادلة أو حق له أن يجيبه عليك أن تؤديه، هو المثل الأعلى لنفسه — أو لعله جار سابع أو ثامن — فليس لغير نفسه احترام ولا مطمح له إلا أن يظل قادرا على التحفظ بمظهره، فلا عناية له بالسياسة أو شئون الحكم، وبحسبه من العلم بالحكومة ومهماتها أن يرى مواكب رجالاتها، ومن التطلع إليها أن يتصور نفسه راكبًا مركبة المحافظ أو أن يكون ممن يحظون بالدخول على «رياض باشا»، يفتح عينه على

الدنيا كل يوم قبيل الظهر، فتتحى الستائر عن النوافذ ويؤذن لنور النهار أن يدخل، وبعد أن يقضى ما يشاء من الساعات التى تأبى إلا أن تكرر فى التمطى والتثاؤب وتناول الطعام والقهوة المرة مذاًباً فيها العنبر، يقوم إلى ثيابه فيتنتقى منها جبة وقفطاناً منسجمين متجاوبين ثم يلف العمامة — ولفها مهمة شاقة قد يستغرق بقية النهار إلى العصر — ثم ينزل إلى المنطرة ويتلبث بها ريثما يشرب القهوة ويشد أعصابه ثم يخرج إلى دكان بدال أو حلاق أو عطار أو غير هؤلاء، ويتوافى الرفاق وتروى أنباء السهرات. ويسأل السائلون عن «عبده» أو «عثمان» أين يغنى الليلة؟ ويتفق الإخوان على مكان يجتمعون فيه وشراب يجلسون إليه. ثم يتحاملون بعد أن يقضوا وطراً من النهار إلى المغنى ولعلمهم غير مدعوين فيظلون. إلى طلوع الشمس فى آهات صاخبة وضوضاء ترجع ما بقى من الرأس وتزلزل الكيان.

ومجالس أبناء البلد نكات خشنة وضحك مقرقع. وأعذب ما يكون طعم الحياة فى أفواههم حين يركبون صاحباً لهم بدعاية عملية. أعرف واحداً من أظرف أبناء البلد وأكرمهم وأرقهم حاشية لا يرضى عن نفسه إلا إذا استطاع أن يوقع واحداً ممن يسهل التماجن عليهم فى مأزق أو يزج به فى ورطة. وكان يستثقل ظل واحد من حراس المقابر. وكان هذا لا يفتأ يغشى مجلسه وينغص عليه لذاته البريئة بتذكيره بالموت وإحضاره إلى ذهنه. فأراد أن ينفيه عن هذا المجلس فأوعز إلى خادم فاستأجر هذا مكارياً وبعثه برسالة إلى صاحبنا الحارس مكتوبة على لسان تاجر معروف، والدته مريضة يدعوه فيها إلى الحضور إليه بأسرع ما يستطيع للاتفاق على بناء مقبرة، فجاء المكارى إلى الحارس بالرسالة ففضها فتهلل وجهه وراح يحسب الربح المنتظر من وراء هذه «المقولة» فلم يصرف المكارى بل ركب الحمار ومضى إلى التاجر ودخل عليه وحياه ودار بينهما حديث:

الحارس: إن شاء الله تكون الوالدة بخير.

التاجر: بخير بارك الله فيك.

الحارس: هل هى مريضة جداً؟

التاجر: نعم ولكن الله المسئول أن يخفف عنها ويلطف بها.

الحارس: إن شاء الله. لقد بعثت لى حضرتك برسالة وقد جئت حسب أمرك.

التاجر: (مستغرباً) رسالة لماذا؟

الحارس: نعم ألتست حضرتك فلاناً؟

التاجر: هو بعينه.

الحارس: إذن الرسالة منك.

التاجر: ولكن.. هل تسمح لى بمعرفة اسمك؟

الحارس: أه! يظهر أن حضرتك لم تعرفنى، ولهذا تستغرب أن تكون قد بعثت

إلى برسالة. أنا فلان.

التاجر: أرجو.. أن تزيدنى بياناً فلست أذكرك ولا مؤاخذه الحارس — هذا غريب!

ورأى أن يحل الإشكال ويحسم الخلاف بتقديم الرسالة التى تلقاها. وتصور موقف الرجلين حين فض الرجل الخطاب واطلع على هذه (البشرى) فى الصباح الباكر. ومن نوادر صاحبنا أنه وصف مرة لبخيل طريقة لصنع (الكنافة) وأقنعه بتجربتها. وجاءنا البخيل بعد أيام — وكان ذلك فى رمضان — يشكو ويسخط ويلعن ويقول: «اشتريت أربعة أرطال من الكنافه، وناولتها امرأتى وقلت أعديها، وجئت بثلاثة أرطال من اللبن الحليب كما أوصانى اللعين خيبة الله عليه! — وغلينا اللبن قبل المغرب بدقيقتين، وكانت (الكنافة) قد نضجت. فلما سمعنا مدفع المغرب صببنا اللبن عليها وأغرقناها فيه، وأقبلنا على الطعام نتناول منه بقدر لنترك مكاناً (للكنافة) وإذا بها عجين لا يؤكل ولا يصلح لشيء إلا أن يرى الكلاب!! وهكذا ضاع على ما أنفقته فى الكنافه من السمن والسكر واللبن والزبيب والصنوبر والبندق والجوز واللوز وثنم الوقود، وضاع على سائر ألوان الطعام التى لم أكد أمسها ترقباً للكنافة. فماذا أدعو عليه؟

وابن البلد لا يعرف الريف ولا يصبر عليه، وإذا خرج إليه استغرب أن الطريق ليس غاصاً بالمساكن المتلاصقة، وأن الأشجار قائمة هنا وهناك، وأن الدنيا أرحب مما كان يظن، وأحس بالميل إلى الضحك، ولكن ثقته بنفسه تفارقه مع المدينة التى غادرها، ويرى نفسه بين الفلاحين غريباً ويسمعهم يتكلمون فيما لا يفهم، ولا يسعه إلا أن ينهب معهم بدلوه، ويخطئ عندهم سهراته ومجالسه، ويحتاج أن يغير عاداته وأن ينزل عنها وأن يحتمل الاضطراب الناشئ عن ذلك، ولا يحس فى الريف ذلك التعاطف القريب، ولا يفهم أن ينام على ظهر الفرن ومع النساء والأولاد والطيور والبهائم لأن

له (مزاجًا) والناس في الريف أكثر ما يكونون بعداء بعضهم عن بعض، وهم يقضون أوقاتهم مبعثرين في الحقول فليس في مجالسهم ذلك الصقل ولا تلك النعومة التي تكون لمجالس أهل المدن، فهي لا تخلو من جفوة طبيعية وتكلف محسوس وصخب مرجعه إلى اعتياد أهل الريف أن يتخاطبوا بأصوات عالية لبعد المسافات بينهم، وقلما يشعر الحضري بحرارة الترحيب إلا حيث يكون قدوم الغريب «حادثة» يندر أن تتكرر، فيتدفق الكرم المحبوس إذا لم يكن له مجال! ولظهوره فرصة كبيرة فيقبل الناس عليه ويفرحون به إقبالهم على التحفة النادرة أو المنظر الذي لا يوجد به الزمن مرارًا — وهكذا كان الحال قبل أن توثق المدينة ما بين القرية والمدينة من الروابط، وتسهل عليهما الاتصال والتبادل والتفاهم والتقارب.

وابن البلد قد يكون أدبيًا أو فنانًا — إذا كان قد جاور في الأزهر في صدر شبابه، وأدبه البيت أو البيتان من الشعر يضمنهما نكتة لفظية أو معنوية، يداعب بهما صديقًا، وأكثر ما يكون نظمه للأزجال والمواليات، وربما نظم التوشيح ودفع به إلى ملحن أو مغن، وهو لا يحفظ من الشعر إلا ابن الفارض ومن إليه، وإذا كان فنانًا فهو من هواة (العود) على الأخص، تبتدئ وتنتهى دنياه بالشراب والسماع والوجه الحسن، وفيما عدا ذلك لا وجود للدنيا.

ولا يعرف ابن البلد الحب ولا يحسن أن يعشق، والجمال عنده يوزنه أرطالا أو قناطر، والمرأة مخلوق يداعب ويغازل ويجمش إلى آخر ذلك، وليست إنسانًا يبادلك العواطف ويعاونك في الحياة ويقاسمك متعها ومتاعبها ويؤدى مثلك وظيفته التي خلق لها. وقد ترى ابن البلد عاشقًا ولكنه عاشق بحواسه، لا يعرف صبوة النفس إلى النفس وحنة القلب للقلب.

وهو يجود في غير كرم، ويمسك في غير بخل، ويتكلم بغير علم. ويضحك بغير جدل. ويحتشم في غير أدب. ويسير في الدنيا غير محتفل. ويقضى الحياة غير عابئ بما كان أو مكثر لما يكون. همه أن يأكل وينام ويسر ويضحك. فالضحك وما يعين عليه من الشراب ومجالس الإخوان غرض يسعى إليه وغاية تعتمد. والحياة آخرها الموت. فما خير التعب فيها وإرهاق النفس بالعمل والطلب؟ أليس كل شيء إلى فناء؟ فما أولاه باغتنام الساعة التي يكون فيها وما أسخف من يعنون أنفسهم ويحرمونها لذات العيش ومتع الوجود؟ ألم تر إلى فلان الذي قضى عمره يجمع المال ويطلب المناصب ويريق ماء وجهه على الأعتاب ويقتري على نفسه ليغنى ويضيق على ذويه ليتسع؟ ألم

تر إليه كيف قضى نحبّه وهو جالس على باب الحلاق؟ فماذا أُجدي عليه تعبّه وسعيّه
وتقتيره وحشده؟ إن فيه لعبرة لسواه. فهات الكأس وأصلح الأوتار، وأطلق صوتك
بالغناء ينفي عن النفس وحشتها وتجلى صداها وتنسها أن الحياة إلى انقضاء.
فابن البلد فلسفة عملية تجهل نسبها العريق في الأبيقورية المشوهة، ولم يعف
عليها الزمن حين عفى عليه.

الفصل الثامن عشر

صورة وصفية لصحفي

قضى (م) سنة كاملة يعمل في سكoon في الصحيفة التي التحق بها، ويؤدى الواجب الذى وكله إليه رئيسه بإخلاص ودقة وكان واجبا شاقا ولكنه كان يجد فيه ملهاة عن هموم الحياة. وعرف له رئيس التحرير فضله فكان لا يفتأ يثنى عليه ويشجعه ويبلغه حسن رأى الناس فيه وحمدهم مجهوده، وكان يخجله أن يسمع هذا المدح ولا يدرى بماذا يجيب فيقطب — وهو يريد أن يبتسم — ويتلفت يمينا وشمالا كأنما يبحث عن نافذة ينثب منها. وطلب منه رئيس التحرير يوما صورته فريع المسكين وقال: «صورتى»؟ قال: «نعم صورتك. نحن في ديسمير كما تعلم».

قال وقد زادت حيرته: «أعلم هذا، ولكن ما العلاقة بين كوننا في ديسمير وبين صورتى»؟

فابتسم رئيسه وقال: «قد اعتزمت أن أعطيك جواز ركوب مجاني للترام. هذا ما أستطيع أن أكافئك به الآن، وقد كان بودى أن أزيد مرتبك ولكن لا أرى هذا ميسورا في الوقت الحاضر. وفي مرجوى أن أستطيع بعد قليل».

ولبت أياما يخجل أن يبرز الجواز أو ينبئ عمال الترام أنه «أبونية» ويؤدى أجر الركوب، ذلك أنه أحس بشيء من الحرج لأن الجواز مجاني، وخيل إليه لغير ما سبب معقول — أن (الأبونية) منحة من الشركة فلا يبعد أن يخطر لها يوما أن تسترده، وتجسم له وهمه فكان يتصور أن العامل جاءه يطلب ثمن التذكرة، فقال له (أبونية) فطلب رؤية (الأبونية) وفتحه ثم طواه ودسه في جيبيه وقال (تذكرة من فضلك) ومع اطمئنانه إلى استحالة هذا، صار يستدرج إخوانه الذين يحملون مثل جوازه ليركبوا معه. أو على الأصح يركب معهم وإن كان طريقهم غير طريقه ليطمئن ويتشجع، حتى ألف هذه الحالة الجديدة. وعلى أنه مع ذلك ظل زمنا كلما مر به عامل الترام وهو

راكب، يتوخى أن يكون سلوكه وهيئته على خير ما ينبغي. فإذا كان واضحاً رجلاً على رجل أنزلها وإذا كان يتكلم صمت، وإذا كان ناظراً إلى اليمين أو الشمال رمى بعينه إلى الأمام كأنه تلميذ لمح المدرس يتشاغل عن الدرس.

و كتب يوماً مقالا ودفعه إلى رئيسه فما راعه في اليوم الثاني إلا رؤية المقال في صدر الجريدة وفي ذيله اسمه. فألقى القلم وأسرع إلى رئيسه يؤكد له أنه لم يذيل المقال باسمه، وأن المسئول سواه عن هذا الخطأ أو التصرف المعيب.

فقال رئيسه: «ألم يخطر لك أن من الغبن أن جمهور القراء يجهل اسم كاتب مقالاتك؟».

فدهش واستحيا أن يخالف رئيسه لا جبنًا، بل لأنه لا يحب أن يتهمة رئيسه بقلّة الفهم، ومضى الرئيس في كلامه فقال: «لقد وضعت اسمك في آخر المقال حتى من غير أن أستاذك» فتمتم «العفو. أستغفر الله».

«لأنى رأيت أن من الواجب إنصافك. إن أسلوبك فيه فن وقوة لا أرى لهما مشبها في كتابات غيرك. ومن العدل أن يعرف القراء أنك أنت صاحب هذا الفن الرائع ومبتكر هذا الأسلوب المحكم».

فوجد قوة كافية للاعتراض فقال: «ولكنى لا أعرف أن لى أسلوبًا» ...

فقاطعه رئيسه: «إن هذا تواضع يزيد قدرك».

فتحامل على نفسه وقال: «أؤكد لك أنى صادق». «لا شك في ذلك».

«ليس لى أسلوب أو فن، وليس في قولى هذا شيء من التواضع إنها الحقيقة».

قال الرئيس «إذن هو كبر أن يكون بك كبر».

قال: «كلا. كلا. ولا هذا».

قال الرئيس وقد ضجر: «إذن أعصابك متعبة استرح بضعة أيام» ولكنه لم يسترح، وحاول بعد هذا الحديث أن يكتب فصار يمزق ورقة بعد أخرى ولا يزيد على سطر في واحدة منها. فوضع القلم يائسًا وقال ما أظننى أستطيع أن أكتب شيئًا بعد هذا، وراح يعجب كيف كان يؤاتيه الكلام وكيف صار يستعصى عليه الآن، أسلوب؟ فن؟ ماذا يعنى؟ إن كل ما يعرفه أنه كان يتناول القلم ويجريه على الورقة، وكانت الألفاظ تسعفه ولم يكن يجد عناء في تخيرها، بل لم يكن يتخير أو ينتقى، فما له الآن لا يقدر أن يخط حرفًا؟

وتناول طائفة من أعداد الجريدة وجعل يقرأ مقالاته من جديد لعله يقع على ما فيها من الفن ويتبين ذلك الأسلوب الذى يذكرونه، فلم يهتد إلى أسلوب أو فن، وألقى

الصحف ونهض عن المكتب واستأذن في الخروج، وقد أيقن أن مستقبله في الصحافة قد قضى عليه.

وبعد بضعة أسابيع دعاه رئيس التحرير وطلب منه أن يتحرى مسألة من المسائل. فقال: «أرجو أن تدع لي مفاتيح المكتبة».

فذهل رئيس التحرير وقال: «المكتبة؟ أو تحسب أن هذا مما يوجد في الكتب؟»

فسأل: «أين إذن أجده؟»

قال: «لو أمهلتني لما أحوجتني إلى هذا». وشرح له الموضوع ثم قال: «فعليك الآن أن تقابل وزير الخارجية في مكتبه».

فسأل: «متى أستطيع ذلك؟»

فضجر الرئيس وقال: «لا تكن طفلا يا (م)» ...

وفي صباح اليوم التالي ركب سيارة حملته إلى الوزارة المقصودة، فلما دخل لم يدر إلى أين يذهب ولا إلى أي ناحية يقصد ووقف لحظة يدير عينه في البناء ويرجو أن يلقي أحداً تكون له به معرفة، ولما طال الأمر راح يتمشى ثم خشى أن يضيع الوقت فعاد إلى الجندى الواقف بباب الوزارة وقال: هل تستطيع أن تدلني على غرفة صاحب المعالي الوزير؟

فصعد الجندى فيه نظره وصوبه ثم قال: «ادخل من هنا وامش في خط مستقيم». ففعل ولم يزل داخلا حتى صار في حجرة واسعة فاخرة الأثاث ولكنه لم يجد فيها لا مكتبا ولا وزيراً والتفت فرأى بابا موارباً فمد عنقه وأطل منه فرأى مكتبا وليس أمامه إنسان، فشجعه خلو المكان فالتفت وراءه فلم يجد أحداً، فتقدم خطوة وأطل مرة أخرى فأخذت عينه ما أيقن معه أن الغرفة غرفة الوزير ولكن الشك خامره. إذن أين الوزير والساعة الآن الحادية عشرة؟ وكيف يخلو المكان من حجاب وشرطة وموظفين قائمين في خدمته؟ كلا. بل أكبر الظن أن الوزير في مكان آخر. ورجع فالتقى بشرطى فسأله. فقال بل هي الغرفة وهنا (وأشار إلى غرفة صغيرة) سكرتير الوزير. فحمل بطاقته مستأذنا في الدخول عليه وخطر له وهو يناوله البطاقة أن مخيرى الصحف مساكين لأنه ظنهم لا يدخلون على موظف إلا إذا بعثوا إليه بطاقتهم مقدما. وأذن له في الدخول فحياه بلسانه ورفع به بالسلام فلم يزد السكرتير على أن هز رأسه، وقال: نعم. قال هل أستطيع أن أقابل معالي الوزير؟

قال السكرتير: «إنه مريض».

فقال صاحبنا: «مريض؟ لا بأس عليه. أرجو أن تبلغه سلامي» فابتسم السكرتير وخرج (م). وقد سره أن الوزير مريض وأنه نجا من لقائه أكثر مما ساءه أن عاد بلا جدوى.

وخيل له أن رئيس التحرير يدرك ما انتابه وأنه يعتمد أن يصرفه عن الكتابة ويكلفه مهمات من هذا القبيل فقد بعث به في اليوم التالي إلى وزير الحقانية، فخرج ولم يركب في هذه المرة سيارة لأنه تفقد ما في جيبه فاستقله، ولم يشأ أن يرهق الجريدة بكثرة النفقات، وخجل أن يطلب أجرة الركوب مقدما. ولم يكن قد احتاج من قبل أن يذهب إلى وزارة من الوزارات فسأل بعض من لقيهم في الطريق فدلوه، وكان وهو سائر يفكر في ثقل هذه التكاليف وفي هذه الضرورات المتعبة، وانتقل من هذا إلى التفكير في الموضوع الذي يقصد إلى الوزير من أجله، فلم ير أن المسألة تحتاج إلى استفهام أو لقاء وزير، وكيف يبدأ الكلام؟ وماذا يفعل إذا رفض الوزير أن يجيب؟ ولماذا لا يذهب رئيس التحرير بنفسه؟

وكان في أثناء ذلك قد دخل من باب وزارة وقطع الفناء ووصل إلى السلم فصعد وهو لا يزال يحاور نفسه وسأل عن غرفة السكرتير فسار به شرطى إليها فأعرب له عن رغبته في مقابلة الوزير، وكان السكرتير يعرفه فأكرمه ورحب به وطلب له قهوة وبعد نحو ساعة مضى به إلى باب فتحه وأشار إليه أن يدخل.

فقال الوزير: «أهلا وسهلا ... زيارة نادرة، تفضل».

فجلس على حرف الكرسي وافتر فمه عن ابتسامة بلهاء، وكان يدرك أن عليه أن يتكلم، ولكن لسانه خانه كأنما قد استل منه، ولم يكن ينقصه أن يحدث له هذا ليزيد ارتباك، وكان الوزير دمنا ريض الخلق فابتسم وقال له وهو يميل إليه: أتشرب القهوة؟ كلا! إذن خذ سيجارة؟ ولا هذه؟ ألا تدخن؟

فأوما المسكين برأسه أن نعم، فقال الوزير «إذن يجب أن تدخن»؟

وقدم له العلبة فأخذ منها واحدة وأسقط واحدة أخرى على المكتب واستطاع فضلا عن ذلك أن يطير بكمه بضع أوراق.

وانحنى يريد أن يلتقطها ويعيدها إلى مكانها فصدم المكتب برأسه ونزل الطربوش إلى أذنيه، فضحك الوزير وقال: «لا بأس والآن ماذا أستطيع أن أفعل لك».

فجر صاحبنا الكرسي ودنا به من المكتب وتنحنح ثم استطاع بجهد أن يفضى بالموضوع، وكان الوزير في أثناء ذلك يقطب حاجبيه أو يرفعهما أو يستعيده بعض

ما يسمع منه، وهو مستغرب، وصاحبنا لا يظن إلى آيات الدهشة في وجهه ولا يدرك أمارات العجب ولا يلتفت إلى دلائل الملل، وأخيراً قال: «وقد جئت راجياً أن تتفضلوا على بيان واف على قدر المستطاع في هذا الموضوع».

فقال الوزير ولم يخف امتعاضه «ولكن هذا من اختصاص وزير الحقانية». ولو كان صاحبنا حاضر الذهن لفطن إلى الغلط الذي وقع فيه ولاستطاع أن يحسن التخلص. ولكن لسانه سبق رأسه فقال: «ولهذا جئت لمعاليكم».

قال الوزير وقد اشتد امتعاضه: «ولكني لست وزير الحقانية» فبهت المسكين، ووقف لسانه في حلقه، ودارت به الأرض ورثى الوزير له وأدركه العطف عليه فلاطفه وقال: «لا بأس، الغلط مردود (وضحك) لم يضع الوقت، يمكنك أن تقصد إلى وزير الحقانية الآن، لقد سرتني زيارتك على كل حال وأرجو أن أراك مرة أخرى، نهارك سعيد».

وخرج (م). وهو لا يرى ولا يفهم شيئاً. ماذا عسى أن يقول عنه رئيس التحرير أو أى إنسان حين يعلم أنه يخلط بين وزير الحقانية ووزير ... أى وزارة هذه التي كان فيها؟ حتى هذا لا يعرفه أو هل يجرؤ الآن أن يستخبر أحداً؟ وهل يجرؤ أن يعود إلى جريدته جاهلاً أى وزير قابل فوق ما كان من جهله وتخليطه.

ولم يكن يخفى عليه أن الحل الوحيد هو أن يقصد إلى الحقانية ويقابل وزيرها. ولكن اضطرابه بلغ مبلغاً احتاج معه إلى علاج، فقصد إلى قهوة قريبة وألهم أن يطلب كأساً من الويسكى جرعتها صرفاً ولم يلبث أن سكنت نفسه قليلاً، فشرب كأساً ثانية وثالثة ثم قام إلى بغيته وبه من الثقة بالنفس ما لا يذكر أنه أحسه من قبل، ورأى من الأمانة أن يكشف رئيس التحرير بما كان من غفلته. فضحك حتى كاد يقع من فوق كرسيه وقال: يا صاحبي. إنك كاتب لبق يسعك ما لا يسع فرقة بأسرها من الكتاب حين تجلس إلى مكتبك، ولكن حين تلقى الناس لا تعود صالحاً لشيء أو قادراً على شيء. فاذهب إلى مكتبك ولا تزايله فما نستطيع أن نخلق خلقاً جديداً.

الفصل التاسع عشر

حلم بالآخرة

(١) وادى الأشباح

عدت من هياكل (الكرنك)^١ مكدودًا معفرا، وكان الجو دافئًا والسماء صافية لا أعرف لزرققتها في غير (الأقصر) مشبهها، فغيرت ثيابى وبدا لى أن خير ما أصنع — لأريح جسمى التعب وذهنى المكظوظ — أن أركب زورقًا أسبح به على النيل. ولما استويت فيه دليت يدي إلى الماء وانثنت أفكر فيما رأيت وأستعيد ما شهدت، ولكن صورة (سخت) في حجرتها المظلمة أفسدت على هذه الفكرة التى كنت أرجو أن استمتع بها في زورق على النيل، ومن ذا الذى يراها ولا تعود أبرز ما يطيف برأسه — رأس لبؤة وجسم امرأة، وعينان ليستا بعين امرأة ولا عين سبع، تحدقان في الظلام وتبحثان عن الفريسة وذلك أنها هى الموكلة بالتهام الأرواح المذنبة فى الآخرة.

وأغفيت وأنا أفكر فيها، ورأيت وأنا نائم على النيل حدًا مضطربا كله تخليط على عادة الأحلام. وانقلب النيل نهرًا آخر — ستيكس — نهر الأغارقة الذى تقول أساطيرهم أن الموتى يعبرونه إلى وادى الأشباح، وآض الملاح الذى يجدف به على النيل (شارون)^٢ وإذا على الشاطئ حشد عظيم من الأموات يسوقهم «هرمز» بالعصا وهم ييكون ويولولون ويندبون الحياة التى خلعوا ثوبها ويبغون الرجعى إليها ولا يطيقون الحقيقة العارية الباقية التى صاروا إليها، ولا يتعزون عن أحلام الدنيا التى كانت

^١ فى سنة ١٩٢٤.

^٢ الملاح الذى ينقل الموتى على زورقه إلى وادى الأشباح.

تفيض لهم على الوجود بريقًا مستعارًا خادعًا؟ آه لقد ذهب سماؤهم كلها مع تلك الأحلام!

وحشروا جميعًا في الزورق الذى اتسع لهم جميعًا، الأطفال حزمة واحدة بلا سؤال أو مراجعة ثم الشيوخ والعجائز الذين لم ييكنهم أحد ثم قتلى بعض المعارك فى جهات من الأرض لم أسمع بها فى حياتى — فما أحوج علم الجغرافيا إلى بعثة تذهب إلى هناك — ثم رجل قتلته امرأة وعشيقتها «ثم الذين أفنتهم الحميات ومعهم طبيب هرم، ودفع شارون الزورق على اللجة، وتركنى على الشاطئ فأحسست بالوحشة وخفت أن أتغفن إذا بقيت وحدى إلى الغد، فصحت بشارون أن يحملنى معه فأبى وقال: إن الزورق غاص وليس فيه موضع لقدم، فبيئت غير أن واحدا من الركاب أهاب بى أن ألقى بنفسى فى الماء وأسبح فقلت له: إنى لا أحسن السباحة وقد.. أغرق.

فقهقه وقال: ماذا تخشى من الغرق وقد مت؟

فرميت بنفسى فى الماء وعمت إليه ومد يده فجذبنى ودار بعينه فلم ير لى مكانًا فأطرق قليلا ثم رفع رأسه وقال وهو يبتسم: أنا — أيضًا — قلق فى موضعى هذا، فتعال بنا ننتقى لنا اثنين من هؤلاء المولدين المنتخبين نجلس على أكتافهما! وفعلنا ودار شارون بالركاب يتقاضى أجرة النقل، وتنبهت إلى ذلك فقلت لصاحبى: «ولكنى معدم وقد جردونى من كل شىء لما مت فماذا أصنع؟»

قال: «لا بأس عليك! فما أنا بخير منك، فاسكت أنت ودع الأمر لى».

وجاء شارون يطلب الأجرة فقال له زميلى: «ماذا تنتظر ممن ليس معه شىء؟».

قال شارون: «كيف؟ أهنالك أحد ليس معه أجرة النقل إلى الوادى؟»

قال: «لا أعلم ولكننا هنا اثنان لا نملك مليما فأشر ماذا تأمر؟»

قال شارون: «واثنان أيضًا؟ وحق بلوتو أحنقكما!»

قال زميلى: «خذ الأجرة ممن بعثوا بنا إليك!»

قال شارون: ولكنك كنت تعرف أن عليك أن تؤدى لى هذا الحق فلماذا تستعد قبل

هذا المجرى؟

قال: «لم يكن معى شىء، فهل كان ينبغى أن نظل أحياء وألا نموت من أجل

ذلك؟»

قال شارون: «أتريد أن تكون الوحيد الذى يحمل إلى الوادى بلا مقابل؟».

قال: «كلا! لست الوحيد فإن لى رفيقًا ومؤنسًا إلى جانبي كما بينت لك، وعلى أنا لا تحمل مجانًا، فإننا وحدنا دون جمعك هذا لا نبكى ولا نندب، ثم إنا خفيفان لا نثقل زورقك، وإذا شئت عاوناك ولم نقاسمك الربح ولم نطلب منك الأجر».

قال شارون: «ولكن هذا لم يحدث قط من قبل فهو غير جائز!».

قال: «إذن ردنا إلى الحياة».

فالتفت شارون إلى هرمز^٢ وقال: «من أين جئت بهذين الحمارين؟ وانظر كيف يضحكان، على حين يبكى كل إنسان؟ لقد كان أولى أن يبقيا هناك على ظهر الأرض فما هما بجديرين بالموت».

ومضى عنا وهو يسبنا ويتوعدنا بقبضة يده، فأسر إلى زميلي: «ما أسخف وعيده! أيموت المرء مرتين ويحمل إلى الزورديق مرتين؟».

ثم قال لى بعد برهة: «لقد هبطت أنغام العويل والنحيب، فما قولك؟ أليس من الواجب أن نضطرهم إلى رفع طبقتها؟».

قلت: «ولكن كيف يسعك ذلك؟».

قال: «انتظر».

وتنحّنا ثم انطلق يغنى:

أقبل الليل علينا بدجا	فاسقنا، فالعمر آيات الشباب
غننا صوتا كأمواج الحياه	بين لين واعتلاج واصطخاب

ولم يكد يفرغ من هذه المقطوعة حتى علا الصباح والنشيج. فواحد يقول: «وأسفاه على ما خلفت؟» وثان يصرخ: «ويحى سيبدد أخى ماورث عنى» وثالث يصيح: «ألا من لصغارى!» وهكذا.

ومضى صاحبي فى غنائه:

أقبل الليل فهات القدحا أو ليس العمر أيام الصبا؟

^٢ هو الذى يتلقى الموتى ويذهب بهم إلى شارون لينقلهم.

غننا لحنا نديا فرحا يطلق الأوصال من قيد الحجى
وارقصوا بين المنايا واطربوا أوليس العمر أيام النعيم؟
وإذا ما لامكم مستغرب فدعوا اللائم يذهب للجحيم

فدنا «هرمز» منه وأوماً إليه أن كف ثم قال: «إن هذا لا يليق ومن واحبك أن تندب كالباقين».

قال مستغرباً: «أندب؟ أأندب الحظ الذى أتاح لى هذه النزهة الظريفة؟». قال هرمز: «إن سلوكك شائن. فأرسل عولة أو اثنتين على الأقل فما يجوز أن تشذ عن المألوف».

قال زميلي: «حسن. سأفعل».

ثم وضع كفه على خده وانطلق يصيح: «وأسفاه على ثوبى المرقع الذى لا يقى فى شتاء ولا ينفع فى صيف، واحزاناه على الحفى، لن أجوب الطرقات بعد اليوم متضورا من الصباح إلى المغيب، ولن أنام على الأفاريز وأتوسد الحجارة وأسنانى تصطك من البرد، من ترى سيرث عكازتى التى كنت أتوكأ عليها؟ يختال فى مرقعتى التى كنت أخطر فى هلاهيلها!».

فمضى هرمز عنه ساخطاً لا عنأً ورحنا نحن نضحك.

وأنا كذلك وإذا «بشارون» ينادى هرمز ويصيح به: أن الزورق يوشك أن يغرق من ثقل ما يحمل. فماذا يفعل؟

فوقف هرمز كالأبله حائراً، ثم وثب رفيقى وقال: «تعال ننقذ شارون فإنا مدينون له».

قلت: «إن الغرق شئ أفهمه وقد أحسه. أما ما عداه فلا علم لى به يا صاحبنى». قال: «ولكنك تستطيع أن تشاركنى على الرغم من ذلك ثم قال لشارون: «اسمع. جرد هؤلاء الموتى مما يحملون وألق به فى الماء. انزع هذه الحلى عن أصحابها. لقد كانت تنفعهم فى الدنيا أما هنا فهى مثقلة بالغش والتضليل. ودعاوى التقوى والوقار والحشمة» قال شارون: «صدقت» ونزعها جميعاً ورمى بها «وماذا أيضاً؟

— ألا ترى هذا الرجل الذى يبكى ويختلس النظر إلى من حوله؟ قال شارون: «نعم. ماله؟»

قال: «أخرج من تحت إبطيه الكذب والنفاق والدهان تتخلص من خمسة قناطير على الأقل. وهذه المرأة الجميلة، عرَّ وجهها وجرده من المساحيق فإن وزنها يجاوز الطن، افعل وعجل». ففعل.

«وهذا الغرور الذى تنطق به عينا هذا الرجل، ألا تحس ثقله؟ إنه يكفى شعباً بأسره!»

والفلسفة التى فى رأس هذا «إنها أثقل من الحديد. ألقِ بها فى الماء. أسرع».

فأطارها شارون عن رأسه.

وهذا الأديب هاك. ماذا يصنع بكل هذه الألفاظ والمجازات والاستعارات والخيالات والسخافات؟ إنها كافية وحدها لإغراق زورقك يا شارون.

قال شارون: «نعم والله! أين كنت مخبئاً كل هذه الأثقال؟»

ثم التفت إلى زميلى وقال: «كفى كفى يا صاحبى! إن الزورق الآن أخف من الريشة. وأحسبنى مديناً لك بإنقاذ سفينتى».

قال من الريشة. وأحسبنى مديناً لك بإنقاذ سفينتى.

قال زميلى: مقاطعاً «أمسك لا ثقلها مرة أخرى بشركك إياى». وعدنا إلى مكاننا وانطلق الزورق خفيفاً يشق النهر ويفرق أمواجه الراكدة ودنونا من الشاطئ عند الفجر وحاذيناه فوثب صاحبى إلى الأرض وأنا وراءه.

ثم أهوى على الباب العتيق بحجر ضخم وراح يدقه كالذى يريد أن يحطمه فهب «أتروب»^٤ وقد طار كراه وأقبل على الباب يتعثر فى مشيته، ورمى مصراعيه وسأل: من الطارق؟

قال زميلى: «أنا».

قال «أتروب»: «أنت؟ أنت ماذا؟ ما شأنك هنا؟ ما اسمك؟» فمال إلى زميلى وقال: «كأنما كنت شيئاً فى الدنيا فيعنيه أن يعرف من أكون» ثم التفت إلى الحارس وقال: «ومن عسى أن أكون؟ أترك تتوهمنى بروميثيوس قد فك أصفاده وجاء يعتق البشر من أسر الموت؟»

^٤ أتروب حارس الباب بوادى الأشباح.

ثم لوح بيده مشيرًا إلى الركب الذى فى الزورق ورفع صوته مغنيًا:

حى يا أتروب ألوان الصباح	طلع الفجر عليكم بالرمم
بين ندب وعويل وصياح	جاء وفد الموت من كل الأمم
جاء وفد الموت يحدره الدليل	ويغنى سوطه فوق الظهور
ويميل الصف فى كل مميل	وهو خلف الصف وثاب يدور
لست خيرًا منهمو وأسفاه	أو كان (الخير) إلا شططا
غلط جاد به، ثم أباه،	دهر سوء لا يعيد الغلطا
بل يعيد الغلط المترذلا!	أو ليس الناس أغلطا تعاد؟
ولو أن الدهر شاء إلا مثلا	لخلت منهم قراهم والبلاد

وكان هرمز وشارون فى خلال ذلك قد أفرغا حمولة الزورق، فلما سمع الموتى هذه الأغنية تصايحوا وضجوا وهموا بزميلى ولكنه تلقاهم بابتسامة استخفاف وقال لهم: أيسوءكم أن يلحق بكم من خلفتم فوقها؟

فارتدوا ساكنين، وتقدم هرمز بورقة فيها بيان مجمل بعدد الموتى، فتسلمها أتروب وبدأ يعد ثم كف وهو يقول: ما أظن ميتًا يفلت أو حيًا يجىء قبل الأوان. امض بهم يا هرمز إلى ساحة رادا مانتييس.^٥

فساقنا هرمز أمامه، وتقدم صاحبى الصفوف وسرت معه فى طليعتها وانطلق يغنى:

دارنا مغرب أنوار الحياة	من رآها لم ير الضوء الطليق
ما لمن يهوى إليها من نجاه	مالما يغرب فيها من شروق
وهى فى الأكوان دنيا عافر	كل زخار له فيها ركود!
ضرب السحر عليها ساحر	فهى عنوان على عقم الوجود!

وطال بنا الانتظار على باب رادامانتييس إلى أن جاء دورى فتقدمت وزاحم زميلى فدخل معى ولما صرت أمام القاضى سألتى: ما اسمك؟

^٥ قاضى الآخرة فى أساطير الإغريق.

قلت: «المازنى».

قال: «ماذا؟ الـ... الـ... ماذا؟»

فلو كنت حياً لاحمر وجهى وقلت: «المازنى. لقد كنت أحسب شهرتى قد سبقتنى».

قال: دع هذا المزاح. من أين جئت؟

قلت: «من مصر».

قال: «مصر؟ ولماذا جئت إلينا؟»

قلت: «وأين كان ينبغي أن أذهب؟»

قال: «إنك من إفريقية فإذهب إلى قسمك».

قلت: من أين؟! عهدي حديث بهذا الوادى.

قال: «لا بأس، سيدلونك عليه. يا هرمز. أرشد هذا التائه إلى سومبور».

فألقيت إلى صاحبي نظرة أسف على فراقه، فجذبني إلى الوراء وأسرّ إلى: «سأذهب

معك».

قلت: «ولكنك لست من مصر».

قال: «ماذا يهم؟ من أنا حتى يعرفوا أمن مصر أنا أم من غيرها! هيا بنا».

(٢) بين أيدي القضاة

انصرفنا من ساحة رادامانتيس وثنينا الخطأ إلى الشاطئ — وكان هرمز قد سبقنا —
وفي مرجونا أن يحملنا شارون إلى القسم الإفريقى فألفينا هرمز وشارون مختلفين.
يقول هرمز: «لقد آن جداً يا شارون أن تؤدى إلى ذلك الدين القديم فما بقى لك عذر».
فيقول شارون: «ما أحسبني أنكرت قط يا صديقى أنى مدين لك» فيهز هرمز
كتفيه ويمط شفتيه ويقول: «لشد ما نفعنى أنك لا تقصر فى الاعتراف! هذه عملة لا
أعرف أحداً سواى يقبلها، فهات ما عليك وانكر إذا شئت أنك مدين لى».

فيبتسم شارون ويفرك كفيه ويقول: ولكنك لم تبين لى قط مقدار هذا الدين،
فيقبل عليه هرمز ويقول: «إن البيان حاضر فليتك مثلى استعداداً لتقديم الحساب.
المرسى والحبلى بسبعين قرشا». فيقاطعه شارون «سبعون قرشا. وحق بلوتو لقد
خدعك! أو أنت تضحك على شيبتي!»!

فينتفض هرمز واقفاً ويقول بصوت عال «أضحك عليك! أنا؟ أهذا جزائى منك؟

لا مال ولا شكر»؟

شارون: هون عليك يا صاحبي فما إلى هذا قصدت. سبعون قرشا إذن وماذا أيضًا؟

هرمز: وإبر لترقيع القلع، وشمع لسد الخروق، ومسامير، وجلد للمجاديف بعشرين قرشًا.

شارون: صفقة حسنة. وماذا؟

هرمز: هذا كل ما أذكر، تسعون قرشًا، وبسط يده شارون — الآن يا صديقي يتعذر على أن أنقذك هذا القدر، فإن العمل قليل والربح ضئيل. لا وباء يفتك بالناس، ولا حرب تحصدهم، ولكني أعدك أن أؤدي إليك دينك إذا نشطت الحركة.

هرمز: ممتعضًا — الأفضل عندي أن يظل دينك مطولًا.

ثم نظر إلينا وقال: «هيا بنا».

فقال شارون: هذان المفلسان لا عجب أن يعودا وأن ترفضهما حتى الجحيم.

فقال صاحبي «ألا تنقلنا إلى ...».

فقاطعه شارون ولم يمهله ريثما يتم كلامه «أنا؟ أتراني جنتت؟ اذهب أنت وصاحبك فما فيكما خير».

وهكذا رددنا، وذهبنا سيرا على الأقدام، وجعل هرمز يشكو في الطريق ويتسخط ويعرب عن تبرمه بحياته وكثرة الواجبات الموكولة إليه. فهو يقوم في الفجر ويعد المائدة السماوية ويرتب حجرتها ثم يقف بجانب زيوس ليتلقى أوامره وليؤدي رسائله إلى أصحابها النهار كله، وفي الليل لا ينام بل يذهب بالموتى إلى بلوتو ويقف في ساحة القضاء حاجبًا، ثم إنه يدرب الخطباء ويشهد الاجتماعات ويفعل غير ذلك أشياء يخطئها الحصر. حتى لقد كان يؤدي وظيفة الساقى لزيوس قبل أن يتزيا (زيوس) في زى نسر ويخطف الغلام (جانيميد) ويتخذ ساقيا له يأخذ من كأسه رشفة، ومن شفتيه البضتين أخرى، ويكايد به زوجته (هيزا).

وأخيرًا بلغنا سهلا فسيحا أمام (الكرنك) وسرنا مسافة في ظل أشجار الليمون، حتى خرجنا من تحتها ووقفنا مع آلاف الموتى من أمثالنا، وكان القضاء خمسة وقد جلسوا صفًا واحدًا، فأسر إلى صاحبي أن تعال نشهد الرواية من أولها، وجذبنى وزاحم بى حتى صرنا إلى الصف الأول فسمعنا من عرفنا ممن حولنا أنه (سومبور) وهو رجل نحيل هزيل الجسم متهضم الوجه أسود العينين براقهما وفي يده زهرة من زهرات البردى يقول: «أيها الزملاء، إن (سخت) تنتظر»!

فسرت في أجسامنا رعدة، ونودى الأول فتقدم وسمعنا كلاما كهذا. سومبور — وهو يعبث بزهرة البردى — قل الحق الذى تعرفه ولا تحاول أن تكذب. أهى الخمر؟ قال الرجل: نعم.

ديارناك: (وهو مديد القامة معتد لها كالجندى لا يلتفت يمنة أو يسرة وحول وجهه لحية كثة).

«هل حوكت من قبل على الشراب»؟

الرجل: لا يا سيدى.

ممبرون: (وهو عريض الوجه لماع الجلد كأنما كان قد دهنه بالليل يتسم تارة ويتجهم أخرى وفي إحدى كفيه قطعة من الذهب وفي الأخرى صرة صغيرة).

«كيف تقول؟ من أى بلد أنت»؟

الرجل: من قرية اسمها ...

بوتا: (وهو بدين قصير أحمر الوجه أبيض الشعر له عينان كعيني الخنزير وأمامه ختم ذهبى كبير) دع هذا وقل لنا: لماذا أولعت بالشراب؟
الرجل: لأنه مرض.

بوتا: لست أفهم. إنى أحب الكأس أو الاثنين من الويسكى مشعشا بالصودا ولكن الإفراط ... هذه هى المسألة.

الرجل: إن المسألة هكذا، كلما ألح على الإحساس بالشقاء أفرطت فى الشراب، وكلما أفرطت فى الشراب زاد إلحاح الإحساس بالشقاء ...
ممبرون: الحلقة المفرغة مرة أخرى.

موروسكن: (رجل مثقف مغضن الوجه على ذراعه قطة يمسح لها شعرها بيده الأخرى) وماذا عندك غير هذا على سبيل الدفاع عن نفسك؟

الرجل: لا شيء. ولقد يخيل إلى الآن بعد أن مت، أنى كنت أستطيع أن أنقذ نفسى لو أنى اشتغلت فى الدنيا بوصف السعادة للناس حين أحس أنا بالشقاء.

موروسكن: أتقصد أنك كنت تريد أن تكون روائيا؟ هذا جميل الحق أقول يا سومبور. إنى أعتقد أن التفاؤل لا يزال يقوم فى الدنيا على قاعدة من مرض الفنان أو شفائه. أليس كذلك؟

سومبور: قد يحلوك هذا البحث. أما انا فأطلب أصواتكم.
ديارناك: إن الشرب أفقد الدنيا جنديا. فليقذف به إلى (سخت).
ممبرون: سخت.
موروسكن: ولكن الرجل يكاد يكون فنانا، إنا التماس السعادة ...
سومبور: ليس عندنا وقت لهذا. هاتوا بقية الأصوات.
بوتا: سخت.
سومبور: خذوه إليها — بأربعة أصوات.

وجروه إلى شجرة ليمون وهمس صاحبي في أذني: «جاروا ولم يعدلوا».
قلت: «ولكن موروسكن».
فقاطعني صاحبي «إنه مغفل».
ونودي الثاني، فتقدمت فتاة وسيمة شاحبة اللون مقدودة قد السيف، ولكن عينيها، على جمالهما، كالكهفين.
وقال سومبور: كم سنك يا هذه؟
الفتاة: اثنتان وعشرون سنة.
موروسكن: قبل الأوان. قبل الأوان.
بوتا: لماذا مت؟
الفتاة: فزعا.
موروسكن: فزعا؟ ما أقسى هذا.
سومبور: من أى شيء؟
الفتاة: من الشرطة.
ممبرون: آه أمنهن أنت؟
الفتاة: نعم يا سيدى، ولكن مهما يكن ذنبى فقد شاركنى في إثمه رجل.
موروسكن: متأثرا — هذا حق وإنها لمن الفظائع الكبر، أن يضع الرجال الشرائع وأن يتحيزوا فيها لأنفسهم.

بوتا: ولكن ماذا دفعك إلى هذا؟

الفتاة: تزوجت رجلا كانت حياتي معه جحيما ثم أحبنى آخر وظننته «الرجل الموافق» ولكن الغريزة خانتني، ولقيت ثالثا قلت لعله هو الموافق ولكنه لم يكن، وهكذا حتى لم أعد أعبا من يجيء ومن يروح وإن كنت لم أزل أرجو أن أفوز «بالرجل».

موروسكن: أه! طلب الكمال والسعى إلى المثل الأعلى..

بوتا: ماذا تقول امراتي لو سمعتها؟ إن لى فتيات ... دعوها، أخلوا سبيلها.

ممبرون: إن روابط المجتمع تتفكك إذا أطلقناها. فلنذهب إلى «سخت»

ديارناك: سخت.

سومبور: صوتان يطلبان لها الخلاص، وآخران يبعثان بها إلى سخت فعلى أن أوازن وأن أرجح أحد الرأيين. إذا أطلقناها فكأننا أبحنا الخطيئة، فبأى وجه بعد ذلك ننهى الناس عنها ونزجرهم عن مواقفها وننذرهم سوء المصير؟ إن هذا يكون خطرا بينا، نعم إن الرحمة والعطف يدركان النفس على مثل هذه المسكينة غير أنا خلقاء ألا نطمئن إلى الصوت الذى يدعونا إلى الشفقة ويغرينا بالرحمة، ولا أكتممكم، إن نفسى لا تطاوعنى على الحكم عليها، ولكنى على الرغم من ذلك أحس أنى أكون منكرا لنفسى ومعطلا لسلطانى ومبطلا لوجودى إذا أعفيتها من العقاب، ونحن هنا قضاة الآداب فياصلة الأخلاق، أفننكر أنفسنا ونعطل وظائفنا؟؟ كلا! فبكرهى أقول: «سخت» فتؤخذ إليها بثلاثة أصوات.

فسارعت باسمه وإن ظلت عيناها زائغتين، وحطت على كتفها وهى سائرة حمامة بيضاء فأمالته إليها خدها.

وقال صاحبه: «جاروا للمرة الثانية، والحمامة شاهدة».

ونودى الثالث، وكان إلى جانبى. فرفعت إليه عينى وعجبت كيف يكون صاحب مثل هذا الوجه شريرا؟

وسأله سومبور: ماذا جاء بك إلينا؟

الرجل: طردت عن كل باب؟

موروسكن: يوشك أن يكون هذا ممتعًا، فماذا أنت؟

الرجل: أنا كالريح تهب بشجرة بعد شجرة.

ديانارك: قل وأوجر لماذا طردت.

الرجل: لأنه لا خير في، لأنني جاهل ولا مزية لي إلا حب كل ما هو حي. لأن كل

من يلقاني يقول: إذا تقبلناه فقدنا القوة والمال ولم يبق لنا سوى الحب، وما جدوى الحب؟

ممبرون: إنك عامل من عوامل الانحلال والتفكك.

الرجل: كالريح أيضًا — هي التي تحلل وهي كذلك التي تؤلف وتجمع.

سومبور: وهل في وجودك ما يعارض وجود القضاء؟

الرجل: إن من يتقبلونني، لا يعودون يعنون بالحكم على شيء لأن قلوبهم تكون

أحفل بالحب من أن تفكر في سواه.

ديانارك: أنت متمرد.

الرجل: كلا، ولكن حيث أكون لا يبقى محل للأمر والنهي؛ لأن كل شيء يكون في

خدمة الحب.

بوتا: هذه فوضى.

موروسكن: إني معجب بك، ولكني أحب أن أطمئن، فقل لي: هل وجودك يضر

براحة الحياة ونعيم العيش؟

الرجل: ما هي الراحة؟ وأي شيء هذا النعيم؟ أهما شيء غير الإيثار وكف الأذى

وأن يخفق القلب بالغبطة وأن..

موروسكن: دعني من فضلك.

بوتا: ماذا يكون مصيري لو أشركت الناس في مالي؟ وآثرتهم على نفسي؟

كلا!! يا سيدي، إن خير الدنيا أن تفتح سخت فمها لتبتلعك.

سومبور: إذا بقيت أنت فلن يبقى محل لي ولا لقضائي.

ديانارك: ولا لجنودي.

ممبرون: ولا لشرائعى.

موروسكن: ولا لراحتى، فأنا آسف.

واجتمع الخمسة على أن يلقموا سخت هذا المسكين.

قال صاحبى: «لقد أصابوا».

قلت: «ماذا تعنى؟ بأى حق يرسلونه إلى سخت؟»

فقال: «ليس هذا وقت الجدل، فإنهم يشيرون إليك».

قلت: «إلى أنا؟»

والتفت إلى الخمسة فوجدت عيونهم على، فتقدمت فى اضطراب ووجل.

قال سومبور: من أنت؟

أنا: أنا المازنى.

بوتا: أنت ماذا؟

أنا: أقول إنى المازنى.

ديارناك: بأى لغة تتكلم؟ أسرع.

أنا: إنه اسمى.

موروسكن: مسكين إن صبرك على حمل هذا الاسم يرفع عنك أوزارك.

أنا: ليس هذا ذنبى.

موروسكن: قد غفرناه لك فماذا أنت؟

أنا: أديب.

بوتا: أديب؟ إذن فأنت عاطل وطفيلى.

أنا: كلا لقد قتلنى العمل وما كانت شكواى إلا قلة الراحة.

موروسكن: اسمعوا. سمعوا!

سومبور: مهلا. أتيحوا له فرصة. بأى شىء كنت تشغل؟

أنا: بالصحافة.

الجميع: الصحافة؟!

وانتفضوا جميعاً واقفين يشيرون إلى شجرة الليمون حيث وقف الثلاثة المقضى

عليهم.

وقال سومبور: سخت بالإجماع.

ثم التفت إلى زملائه وقال: وحسبنا اليوم هذا وأعفونى من شهود التنفيذ فلن:

أقوى عليه بعد هذه الصدمة.

ووقفت تحت الشجرة مع رفاقى الثلاثة أنتظر «سخت» وإذا بصاحبى يجذبنى

ويقول: «تعالى يا أبله».

قلت: «إلى أين»؟

قال: «ماذا يعينك وقد نجوت من سخت»؟

قلت: «نجوت؟ كيف كان ذلك»؟

قال: «لقد عز على أن تكون بين الفرائس فذهبت إلى حيث قيدوا «سخت» فلما

صار القضاة عندها سبقت الحارس فأطلقتها عليهم فالتهمتهم بدلا منكم، ولكنى

حلم بالآخرة

والله آسف على نجاة جارك! على أنى — على العموم — أرانى أعدل من هؤلاء القضاة
يرحمهم الله».

فأرسلتها صيحة فرح عالمية فتحت عيني على النيل وحقائق الدنيا على شاطئيه.